د. إبراهيم صقر الزعيم

النصر المبين

النصر المبين

د. إبراهيم صقر الزعيم

إصدارات دار "إي-كتب"
لندن، أيلول – أغسطس 2019

Outright victory

BY: Dr. Ibrahim Saqr Al Zaeem
All Rights Reserved to the author ©
Published by e-Kutub Ltd
Distribution: TheBookExhibition.com & Associates
All yields of sales are reserved to the author
ISBN: 9781780584881
Second Edition
London, Sep 2019
** * **

الطبعة الثانية،
لندن، أيلول سبتمبر 2019
النصر المبين
المؤلف: **د. إبراهيم صقر الزعيم**
الناشر: e-Kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
التوزيع: TheBookExhibition.com
كل عائدات البيع محفوظة للمؤلف
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق.
كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي-كتب) أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
alzaeemibrahim@gmail.com

الفهرس

الإهداء 5
مقدمة الطبعة الأولى 7
مقدمة الطبعة الثانية 12
الفصل الأول: مفهوم النصر، وصوره 13
الفصل الثاني: أنواع النصر 47
الفصل الثالث: أركان النصر 89
الفصل الرابع: مراحل النصر 133
الخاتمة 157

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾

(غافر:51).

الإهداء

أراهم رؤيا العين.. يتدفقون من كل وادٍ.. يهبطون كسيل عرمرم من كل تلة وجبل.. لا تقف في طريقهم حدود ولا سدود.. يستهينون بمخاطر الطريق ووعورتها.. أرى الراياتِ مزخرفة ملونة.. لكنها جميعاً تجملت بكلمة التوحيد.. وهي في ذلك تشبه حالهم.. فليست الألسن والوجوه واحدة.. إنما الهدف متفق عليه.. والغاية العظمى كذلك.. الرايات تعلوهم جميعاً.. ولا يعلو أحد عليها.. فلا يأتي نهياً ولا يخالف أمراً.. والسلم والحرب عندهم في ذلك سواء..

هم جنود جيش الحق وقادته.. ويكأنَّ وجوههم القمر ليلة البدر.. بل هي أجمل.. ذلك أنها مستبشرة لما هي فيه من النعمة والفضل العظيم.. عيونهم تتطلع إلى الحبيبة الأسيرة.. لا يعشقون الحياة ولا يحرصون عليها.. لكنهم لا يريدون الموت الآن.. لا يريدونه قبل أن ينال كل منهم شرف العناق الطاهر للمحراب.. والقُبلة للأرض الطهور..

ما أعظمه من يوم.. وما أجلَّها من ساعات.. أسمع صوت تكبيرهم يقترب.. وجلبة خيلهم ترتفع.. هم أولئك.. أنظر إليهم في ذلك النسق العجيب.. نسق الصلاة التي هذبت سلوكهم فكانوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص.. وهذبت أخلاقهم.. فَيُؤثِرُ كل منهم صاحبه بشربة الماء وإن قلت.. وهذبت فكرهم فلا يقدمون بين يدي الله ورسوله ﷺ..

الحمد لله صدق وعده.. ونصر عبده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.. اليوم يعلو ذكره.. وتطهر أرضه.. فيبدد الظلام.. ويمزق عرش الباطل.. ببطولات المؤمنين الصادقين..

هؤلاء أراهم في كل مزارع وعامل.. في كل عالم عامل.. ومعلم وطبيب ومهندس وطالب.. في كل صاحب فكر وقلم.. في كل من يصاحب الأرض فتبوح له بأسرارها.. وكل من يخالط الناس.. فيحبهم ويحبونه.. فيأخذون عنه أسرار العزة والكرامة.. إلى المشتغلين بإصلاح الأرض والإنسان.. **إليكم أكتب النصر المبين.**

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطيبين الطاهرين، وبعد:

يعيش واقعنا العربي ظروفاً مؤلمة، فأوضاعنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، تزداد تخبطا، وكأنها الأوضاع العربية قبل البعثة النبوية، وبناء على ذلك الواقع المؤلم أصابت الصدمة كثيراً من أبناء الأمة، سواء من عامة الناس، أو حتى بعض المنتسبين إلى العمل الإسلامي، والصدمة في البداية واردة، فقد يتعرض لها الجميع، لكنها إن أثرت على الشخصية وقهرتها، تحولت إلى انتكاسة، وهي ثلاثة مراحل، وأهلها منها على أحوال مختلفة، فبعضهم يقف عند المرحلة الأولى أو الثانية، ويمر بعضهم الآخر بالمراحل الثلاث، وهي كما يلي:

الأول: الصراع النفسي: وهؤلاء يخوضون صراعاً دائماً مع أنفسهم، فهم في صراع بين ثقافتهم وواقعهم، بين ما يحلمون به في مخيلتهم، من تقدم ورقي وسيادة، وبين ما يعايشونه من تراجع وتخلف حضاري وتبعية على المستويات كافة.

الثاني: الانزواء الفكري: السخط على الواقع، قد يؤدي بصاحبه إلى الفرار منه، فيعيش في عالمه الخاص، في مدينة فاضلة بناها لنفسه، منزوياً في بيته أو عمله أو حتى محرابه، ويظن هؤلاء –أفرادا كانوا، أو جماعات– أنهم إذا أقاموا دولة الحق والعدل في نفوسهم، فلا يضرهم من ضل بعد ذلك، وغفلوا أنهم مأمورون بالعمل من أجل دين

الله، فالاستخلاف في الأرض يتطلب عملاً دائباً متكيفاً مع الظروف والمستجدات، ولم يُعفَ أحد من هذه الأمانة والمسؤولية العظيمة.

الثالث: الصدام المجتمعي: وهذا هو الأخطر، فإذا اعتزل المجتمع، برر ذلك الصنيع، فتراه يلقي باللائمة على مجتمعه، ويقذفه بالكفر، مساويا في ذلك بين الحاكم والمحكوم، ثم ربما يلجأ إلى حمل السلاح؛ لتطبيق الشريعة التي يراها غائبة، وهي عنده الحدود، ونسي أن الحدود جزء يسير من تلك الشريعة الواسعة، فإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج، وتيسير سبل الرزق للناس، ونشر الفضائل، ومقاومة الرذائل، ومحاربة الفقر، والبطالة، والجهل، والمرض، وفي المقابل تحقيق التقدم الزراعي، والصناعي، وبناء مؤسسات البحث العلمي في مختلف مجالات الحياة، كل ذلك وغيره جزء من تطبيق الشريعة.

والحقيقة أن خطر هذه الانتكاسة على الشاب الملتزم أكبر منها على أي شخص آخر، وذلك أنه ربما لا يكتفي بالصراع النفسي والانزواء الفكري، بل إنه مرشح لدخول مرحلة الصدام المجتمعي، فهو يرى أن واجبه الشرعي إعادة الناس بالقوة إلى الإسلام.

ولسنا مع أي صنف منهم، فلا ريب أن همجية النظام العالمي الجديد بلغت ذروتها، في التغول الغربي على العالم الإسلامي، والأدهى أن ذلك يتم بخيانة من بعض الأمراء والعلماء والأدباء، الذين يتنكرون للدين والوطن، فيقفون مساندين وداعمين، للسياسة الأمريكية والإسرائيلية.

وحتى عندما يخطئ بعض المسلمين، فيرتكبون المنكرات، فليس الحل أبداً في القتل والتفجير، فهذا هروب من المسؤولية، ربما يكون التغيير بالإقناع، هو الحل الأصعب، لكنه يتصف بالديمومة، أما القوة فإنها إن ذهبت، ذهب خوف الناس منها، وعادوا إلى ما كانوا عليه، ومن هنا نفهم سبب رفض رسول الله ﷺ، للملك عندما عرض عليه، فهو يريد صدوراً منشرحة، وعقولاً فاهمة، وقلوباً واعية، لا أجساداً منقادة بالرعب.

إن التقوقع على الذات، أو الخروج الفكري والمسلح على المجتمع، لن يكون حلاً للأزمة. بل مضاعفة لها، وتقطيعاً لجسد المجتمع، الذي يفترض أن يبقى متماسكاً، في زمن الفتن والملاحم.

وليس الهدف من هذا الكتاب تحديدَ موعد لتحرير فلسطين، فقد اجتهد بعض العلماء، في توقع عام التحرير، وهو اجتهاد مبني على تحليل من القرآن الكريم، والتجربة الجهادية للشعب الفلسطيني، وهي من باب البشريات والمحفزات، التي يجب ألا تقعدنا عن العمل، فنحن نحمل البشرى الصادقة التي لا ريب فيها من الكتاب والسنة.

إنما الهدف منه، هو تجديد الأمل بعلو هذه الأمة، من خلال تقديم المفهوم الدقيق للنصر، والتفريق بين النصر والتحرير، فإذا حقق المسلم أركان النصر، كان منتصراً، وإن اعتقُل، أو استُشهد، أو أُخرج من أرضه، وبدأت بذلك أولى خطواته نحو التحرير، الذي يُعد نتيجة لمسيرة طويلة مع هذه الأركان.

كان هذا الموضوع يشغل باليَ كثيراً، فكنت أتحدث ببعض هذه المفاهيم في الدروس والخطب، التي كنت ألقيها بين الحين والآخر،

لكن فكرة الكتاب، جاءت في عام 2016، أثناء وجودي في ماليزيا، فصممت على الكتابة بعد الفراغ من دراسة الدكتوراة، وفعلا بدأت الكتابة مستعيناً بالله، وكان ذلك تقريباً في تشرين أول (أكتوبر)، وبعد عودتي إلى فلسطين، واصلت الكتابة، إلى أن أكرمني الله بتمامه.

وقد سميت الكتاب "**النصر المبين**"، وسبب اختيار الكلمة الأولى "**النصر**"، لما قدمته موجزاً هنا، وسيأتي مفصلاً في الفصل الأول، أما عن الكلمة الثانية "**المبين**"، فإن تحرير فلسطين عندما يتم، يصبح النصر الذي كان ينعم به محققو أركانه، واضحاً للناس جميعاً، فيأتيهم من كان متردداً، وبعض من كان معانداً، أما السابقون السابقون، فيأتي التحرير مكافأة لهم، فمن أكرمه الله منهم وشهده، ازداد لله تواضعاً، وبدأت عنده مرحلة جديدة من الدعوة، نصرة لدين الله.

وقد جاء الكتاب في أربعة فصول: تحدثت في فصله الأول، عن مفهوم النصر وصوره، وفي الثاني عن أنواعه، وخصصت الفصل الثالث؛ للحديث عن أركان النصر، أما في الفصل الأخير، فتحدثت عن مراحل النصر، التي تنتهي بالنصر المبين.

إن هذا العمل اجتهاد من أحد أبناء هذه الأمة، مؤمن بالنصر المبين لشعبه وأمته، يعيش تواقاً لتحرير بيت المقدس والصلاة فيه، وفي كل قرية ومدينة فلسطينية، بل إنه يتطلع لذلك اليوم الذي تعود فيه أرض الإسلام، إلى سابق عهدها، فأهل هذه الشريعة أصدق عهداً، وأكرم أخلاقاً، وأوفى ذماماً، وهم خير مؤتمن على العالم كله، ويوماً ما سينعم الناس، بالنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

ولا أزعم أن ما سطَّرته فيه هو الصواب المطلق، فكلٌ ان آدم خطَّاءٌ، وخير الخطائين التوابون، وما كان من عند غير الله وجدوا فيه اختلافا كثيرا، غير أني أرجو أن أفوز بثواب المجتهدين، وكلي آذان صاغية لمن أهدى إلي عيوبي، وأنا له من المحبين الشاكرين، وممن يحبون الناصحين، ودعائي لهم، ولمن سَرَّه أن يقرأ هذا الكتاب، واستبشر بأن النصر على الأبواب، أن يجمعني الله بهم في رحاب بيت المقدس، والمسجد الأقصى المبارك، وقد تطهر من دنس أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وشَرَّ الدوابِّ عند الله عند الدواب، كما دخله الفاتحون أول مرة، وأن يكون هذا بشرى اللقاء في جنات وعيون إخواناً على سرر متقابلين فرحين بما آتاهم الله من فضله، بينما اليهود ومواليهم يصطرخون: ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا فإنا ظالمون، فيجيبهم ربهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وسلم.

الفقير إلى عفو ربه ورضوانه

إبراهيم صقر إسماعيل الزعيم

فلسطين–غزة

15 رمضان 1438هـ

10 حزيران (يونيو) 2017م

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطيبين الطاهرين، وبعد:

بعد أن تكرمت أكاديمية أوائل وقادة، بطباعة الكتاب، طلبت من بعض الأساتذة الكرام، التفضل بالقراءة؛ من أجل حلقة نقاشٍ في وزارة الثقافة، فاستعد لذلك كلاً من: فضيلة الشيخ الدكتور: يونس محيي الدين الأسطل، والدكتور الفاضل: محمد سليمان الفرا، وتفضلت الوزارة باستضافتهما مع الكاتب، ودعوة جمعٍ من المثقفين.

والحقيقة أني تلقيت منهما تصويباً منهجياً، وملاحظاتٍ قيمةً، فجزاهم الله خيرا، والشكر موصول لوزارة الثقافة، وكل من قدم النصيحة.

إبراهيم صقر الزعيم

6 ذي الحجة 1440هـ

7 آب (أغسطس) 2019م

الفصل الأول: مفهوم النصر، وصوره

مفهوم النصر والهزيمة

إن مفهوم النصر في القرآن الكريم مختلف كلياً عن مفهومنا له، فالمفهوم البشري يحصره في "كسر إرادة الخصم، وإزالة رغبته في القتال أو المقاومة"، وهذا الكلام يشمل القضاء على إمكانات العدو البشرية والمادية، أو إجباره على الانسحاب من أرض كان يحتلها أو سعى لاحتلالها، لكن مفهوم القرآن الكريم للنصر غير ذلك تماماً، لنأخذ على سبيل المثال قوله تعالى:﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾ (غافر:51).

إنه يتكفل سبحانه بنصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة، وانتصارهم في الدنيا يعني _وفق فهمنا_ علوَّ الرسل على أعدائهم، وذلك إما بانتقام الله من المشركين المعاندين، أو التقاءِ الفريقين، فتكون الغلبة للرسل والمؤمنين، وذلك بالقضاء على جيوش الباطل، لكن ما وقع غير ذلك، فنحن نعلم أن من الأنبياء من قتله قومه، مثل يحيي وزكريا عليهما السلام، ومنهم من همُّوا بقتله، فنجاه الله من بين أيديهم، مثل محمد ﷺ، وعيسى بن مريم عليه السلام، ومنهم من أُخرج من بلده، مثل نبينا الكريم، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي هاجر إلى الشام.

وهنا قد يتساءل أحدنا فيقول: أين النصرة للرسل التي ذكرها الله سبحانه وتعالى، وهؤلاء أنبياؤه ورسله، وبعضهم من أُولي العزم من

الرسل، يصيبهم من أقوامهم القتل والإخراج من الأرض؟!، أليس القتل والإبعاد هزيمة معنوية ومادية، فكيف يختارها الله لأنبيائه وأوليائه؟

والجواب من وجهين كما جاء عند الطبري في تفسير هذه الآية:

أحدهما أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، إما بإعلاء الرسل على المكذبين، حتى يقهروهم، كالذي كان من أمر داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام. إذ أعطاهما من المُلْك والسلطان ما قهرا به كل كافر، وكذلك محمد ﷺ، الذي أظهره الله على من كذّبه من قومه، وإما بإهلاك من حاربهم وشاقهم، وإنجاء الرسل ممن كذّبهم وعاداهم، كما حدث مع قوم نوح، ومع فرعون، أو بالانتقام في الحياة الدنيا ممن كذب المرسلين وقتلهم، كما فعل سبحانه بقتلة يحيي عليه السلام، عندما سلط بختنصر عليهم[1].

والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمداً ﷺ، والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد[2].

وعلى هذا القول، فهي مَكرُمةٌ من الله لهذه الأمة، وبشرى لأتباع النبي ﷺ في كل مكان، بأنهم منصورون بحول الله، حتى وإن انتفش الشرك، وعم الظلم.

والخلاصة من خلال ما ذكره الإمام الطبري في الوجه الأول، نجد ثلاث صور للنصر، وهي كالتالي:

---

[1] جامع البيان للطبري (21/ 400-401).

[2] المرجع السابق (21/ 401).

الأولى: ظهور الأنبياء والمرسلين على المكذبين من أقوامهم.

الثانية: نجاة الرسول وهلاك المكذبين، ومنه ما حدث مع قوم نوح لما كذبوا نبيهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ الَّذِينَ**﴾ (القمر:9-14).

الثالثة: قتل الرسول وربما بعض أتباعه، ثم يأتي انتقام الله من المجرمين المكذبين بأيدي أقوام آخرين.

وقد يقول قائل: إن الصورة الأولى والثانية هي فعلاً من وجوه النصر؛ لكن أين وجه النصر في الصورة الثالثة، نعم جاء الانتقام بيد أناس آخرين، لكن ذلك جاء بعد قتل النبي وأتباعه، فكيف يكون ذلك نصراً؟!!.

إن قتل الرسول، أو إخراجه من أرضه، لا يعد نصراً للمكذبين من قومه، ولا هزيمة للرسول وأتباعه، فهناك معيارٌ آخرُ للنصر والهزيمة، غير المعيار البشري، إنه المعيار الإلهي، الذي يرتبط بموقف الرسول وأتباعه من الدين، الموقف من تبليغ أمانة الدعوة، والثبات على الإسلام؛ إنه يتعلق بظهور القوة الروحية على أدوات البطش المادي، وانتصار المبادئ على المصالح، وعلو عالم القيم على غابة النزاع والمفاسد.

وإذا كان قتل الرسل –وهم أكرم الخلق على الله– ليس خسراناً، فمن باب أولى ألا يكون قتل المؤمنين كذلك، لنأخذ على سبيل المثال أصحاب الأخدود، قُتلوا بطريقة بشعة، حُرِّقوا بالنار، ولم يَبقَ منهم أحد، لقد قضي على منجزات المجتمع، تاريخه، وثقافته، وكيانه السياسي، فإذا اعتبرنا أن عدد الشهداء والجرحى، وتدمير البيوت والمساجد والمؤسسات، هزيمة، فَحَسبَ ذلك الفهم، فإن أصحاب الأخدود تعرضوا لأقسى هزيمة في التاريخ، لكن الواقع غير ذلك، فالله سبحانه وتعالى أثنى على إيمانهم، وعظَّم ثباتهم، وخلَّد ذكرهم[1].

صور النصر:

إن معركة الحق والباطل مستمرة لن تتوقف، وانتصار الحق في هذه المعركة له صور متعددة، فليس القضاء على الباطل وتمزيقه، وعلوٌّ شأن الحق وارتفاع رايته، هي الصورةَ الوحيدةَ للنصر والتمكين، بل إن هناك صوراً أخرى، والدليل نجده في قول الله ﷻ: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**

---

[1] ليس معنى هذا أن يقبل المسلمون بقتلهم وفنائهم، إذ يفترض على الحركة الإسلامية، أن تأخذ بالأسباب التي تمنع تعرضها لما تعرض له أصحاب الأخدود، ولكن ما قصدته أن الشهادة للجنود والقادة ليست هزيمة ولا خسراناً.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:217).

﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ**﴾: إنها تؤكد أن أئمة الباطل لن يتوقفوا عن قتال أهل الحق، لن يسمحوا بانتشار الفضيلة، ليعم خيرها وفضلها في العالمين، ولن يتنازلوا عن سيل عظيم من المصالح، فيتركوا الميدان للمتطهرين، المترفعين عن الملذات والمتع الزائلة.

أما قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ فهي البرهان على أن معيار النصر والهزيمة ليس مرتبطاً بتضحيات بشرية أو مادية، وإنما معيارها الموقف من الدين، فلا يمكن اعتبار ما يجري للمؤمن من قتل أو سجن أو إبعاد، ولا كذلك ما يقع من تضحيات مادية مهما عظمت، خسارة ولا هزيمة، فالخسران المبين هو خسارة الدين، فإذا تزحزحت الجماعة المؤمنة عن الدين، ابتغاء دنيا، أو طمعاً في مهادنة عدو، فقد باءت بخسران الدنيا والآخرة معا، ووفق مفهوم المخالفة: إذا ثبتت هذه الفئة على دينها، فلم تغير ولم تبدل، سُجِّل لها ذلك نصراً عظيماً؛ لأن الذين كفروا أنفقوا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، ثم كانت عليهم حسرة، وسيغلبون عاجلاً أو آجلاً، وليست تلك هي النهايةَ؛ بل إلى جهنمَ يحشرون.

إن الآية الكريمة لم تُشِر من قريب أو بعيد، إلى تمكين دين الله في الأرض، بمفهوم إقامة دولة أو سلطان للإسلام، وظهوره على الكفر والطغيان، فالمطلوب من المسلم أن يقيم شرع الله في نفسه أولا، فلا

يخضع لظالم، ولا يركن إلى طاغوت، ثم يعمل لنصرة الإسلام، وإقامة الدين، ورفعة الكتاب والسنة، وتحكيم الشريعة، فذلك ولا شك واجب وضرورة؛ لإنقاذ البشرية من الطواغيت، لكن في المقابل، فإن الله لن يحاسبنا على تحقيق ذلك بالفعل، فذلك ليس بأيدينا، وإنما يقع بأمره، فمتى أراد هيَّأ لذلك الأسباب، ومثله تماماً، العمل لتحرير فلسطين، فهو واجب شرعي، ولا ينبغي لداعية أن يقعد عن ذلك الشرف، وتلك المنزلة، وهي العمل لتحرير بيت المقدس، وكل فلسطين، لكنك لن تحاسب على وقوع ذلك في حياتك أو بعد مماتك، فالمهم أن تعمل لذلك اليوم.

لِتعلم أيها الداعية أن رفضك للباطل، ونجاتك من حيله، نصر عظيم، إنه انتصار القلة على الكثرة.. الفضيلة على الرذيلة.. التفويض على التقويض، انتصار منهج تفويض الأمر لله مع الأخذ بالأسباب، على منهج تقويض الأخلاق، والنظم الاجتماعية والثقافية والسياسية.

تعديل الخطة:

إن مكر أهل الباطل بأهل الحق يأتي لتحقيق هدف رئيس، وهو رَدَّ المؤمنين عن دينهم، فإن لم ينجحوا في ذلك، عدلوا إلى الخطة الثانية، وهي المكر بأهل الإيمان لتغييبهم عن المشهد، بواحدة من ثلاث، هي: الاعتقال، والاغتيال، والتهجير، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (الأنفال:30).

إن هذه الثلاثة قد تناقش فيها القوم لما أرادوا تغييب الدعوة، بالاغتيال الجسدي للنبي الكريم، بعد أن فشلت في الاغتيال المعنوي فشلاً ذريعاً، وفي اجتماعهم ذكروا واحدة بعد أخرى، فأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ، وكذلك يفعلون في كل زمان ومكان، يجتمعون وغايتهم القضاء على الدعوة والدعاة، فيدلي كل فريق بدلوه، ويذكر ما يراه من هذه الثلاثة مناسباً لتلك الغاية، فإذا فعلوها ولم تُجدِ نفعاً، اجتمعوا مرة أخرى، وتبادلوا الآراء، فإذا أراد بعضهم عرقلة الدعوة مجددا بحيل المكر الأولى، صرخ فيهم شيطانهم الأكبر مؤنباً ومحرضاً، فاختار لهم الحل، الذي يظنه الضربة القاضية لجيش الحق، سياسة الاغتيال، فإذا وقعت بالفعل للداعية أو المجاهد، فثبت الله أولياءه، وجمع كلمتهم، ووحَّد صفهم، وربط على قلوبهم، فثبتوا على ما كان عليه شيخهم وقائدهم، تبينت الشياطين أن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في عذاب المكر والحسرة دهراً.

إذا كانت مرتكزات الباطل في حربه؛ للقضاء على دعوة الإيمان ثلاثة فقط، فأين الحصار، ألا يعد وسيلة للإجهاز على الدعوة الإسلامية؟!

سلاح الحصار:

بالعودة إلى الحصار في شعب أبي طالب، ينبغي أن نعرف الظروف التي أحاطت بهذه الواقعة.

لقد كان الحصار في حقيقته وسيلة وليس غاية، فقد لجأ القوم إلى وسيلة الحصار؛ لتحقيق هدفهم في إنهاء الدعوة، بقتل قائدها ﷺ،

وسنرى ذلك من خلال النص التالي: قال الزهري: "ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتدَّ عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله ﷺ شِعبَهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، واجتمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفةً وعهوداً ومواثيقَ لا يقبلون من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم به رأفة حتى يسلموه للقتل"[1].

من خلال هذا النص يتضح أن الانحياز للشعب، كان خطوة استباقية من أبي طالب، ومن تحالف مع رسول الله من المسلمين والكافرين؛ لإنقاذ حياة النبي ﷺ، يفعلها المؤمنون تعبداً لله، ويفعلها الكافرون حمية، وهي محمودة لهم، فكم من غير المسلمين من يقفون في وجه الباطل، فيرفضون الظلم الواقع على المسلمين، ويتضامنون معهم، تضامن الإنسان مع أخيه الإنسان، ورأينا ذلك من المتضامنين مع الشعب الفلسطيني ضد الحصار.

فلما رأت قريش ذلك من بني عبد المطلب، حولته إلى حصار ظالم، تُضَيِّقُ فيه الخناق على من تضامن مع نفسه، تحارب من

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي (2/ 311-312)؛ السيرة النبوية لابن كثير (2/ 43-44).

انحاز إلى إنسانيته، وانتصر للفضيلة، حتى لو كانت من مخالف في المنهج والفكرة، تحارب المبادئ والقيم، بسلاح المقاطعة، بسلاح الجوع، مصادرة الحقوق، واستغلال حاجات الناس، علَّهم يذعنون فيخضعوا، ويسلموا محمداً، والتسليم هنا من جهتين، فإما أن يُسلموا جسده، فينال العدو منه بالقتل، وإما أن يُسلموا فكرته، فينفضُّوا عنها، ويعلنوا عدم حاجتهم إليها؛ لأنها جَرَّت عليهم المآسيَ والآلام، وهنا قد يبقى القائد السابق للدعوة (المعزول) على قيد الحياة، لكنه في حكم الميت، فلا سمع له ولا طاعة، ولا أنصار ولا أتباع، وتبقى الفكرة حبيسة عقل صاحبها، فلا تتحول إلى منهج حياة، وأسلوب تغيير.

انقضت سنة الحصار الأولى، فلم يحدث أن تلقت قريش وعداً بتسليم النبي ﷺ، فيتخبط القوم، وتحتار عقولهم، كيف يجوع أولئك ويشرف أبناؤهم على الموت، فلا يتراجع منهم أحد؟ كيف يمكن التسلل إلى قلوب أناس يقدمون حياة نبيهم على حياتهم؟ أسئلة تدور في أذهان سادة قريش، ومراكز صنع القرار فيها، لكن صوت الكبر، يحثهم على المواصلة، ويعدهم النصر، وما يعدهم إلا غروراً.

ثم يراهنون إذا لم يسلموا شخص الرسول ﷺ للقتل فلينفضوا عن الفكرة، وسيلتهم في ذلك ترويض العقل الجمعي؛ لِيُحدثَ انقلاباً على الدعوة والداعية، إنهم يحلمون بفض الناس عن دعوة الإسلام، وخلخلة الصف، فلعل تلك المحنة تفرقهم، فتنقسم الدعوة أقساماً، يقبل بعضها بحلول وسط، ويداهن بعضها الآخر أئمة الضلال، لكن خاب فألهم، وارتد كيدهم إلى نحرهم، فلم تزد سنوات الحصار الثلاث المهتدين إلا إيماناً مع إيمانهم، وثباتاً إلى ثباتهم، فتحولوا من مُحاصَرِين إلى

مُحاصِرِين، يحاصرون عدوهم فَيُشَلُّ تفكيره، ويطيش صوابه، وترفض العرب صنيعه، فيتحرك أهل النخوة فيهم، أمثال هشام بن عمرو بن ربيعة، وزهير بن أبي أمية؛ لرفع الظلم الواقع على المسلمين. والحقيقة أن الحركة الإسلامية، وهي تعيش الحصار، تواجه تحديين خطيرين، هما: الحفاظ على تماسك صفها الداخلي، واستمرار التفاف المجتمع المسلم حول الفكرة الإسلامية، وذلك على النحو التالي:

التحدي الأول: الحفاظ على تماسك الصف الداخلي:

وهو تحد خطير، فكيف تحافظ الحركة الإسلامية على الانضباط بالفكرة، وعدم الشذوذ عن المنهج الذي رسمته الحركة لنفسها على مدار سنوات طويلة؟ إن عدم الإجابة على هذا السؤال تعني بروز تيارات مختلفة الرؤى والتصورات والأفهام داخل الصف الإسلامي، وقد يتطور ذلك إلى الحالة الأخطر، وهي انشقاقات من الجماعة الأم؛ فيكون ذلك سبباً لتشتيت المواقف والجهود، وتشتت أبناء الدعوة.

ومن أجل الحفاظ على ذلك الهدف المهم ينبغي التركيز على أمر مهم، وهو القرب الحسي والمعنوي من الأنصار، وهذا ضمانة التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

التحدي الثاني: استمرار التفاف المجتمع المسلم حول الفكرة الإسلامية:

إن النجاح في هذا التحدي مرهون بما يراه الناس من قادة مشروع المقاومة، على اختلاف مستوياتهم القيادية، فإذا كانوا مع الناس في

وادٍ واحدٍ، جمع الله لهم قلوب الناس جميعاً، حتى وإن اختلفت الآراء أحياناً؛ فإنها مناقشة في الفروع، ويظل الجميع ملتزماً بالأصل، وهو مشروع الجهاد.

وما أعنيه هنا، هو عدم التميز عن الناس في شيء، وهذه لها فعل عجيب في تثبيت المجتمع، ودفع المحنة، ولنا الأسوة في رسول الله ﷺ، فلما كان على بطون الصحابة حجر واحد يوم الخندق، كان حجران على بطنه الشريف لإسكات الجوع، ولما حضر الطعام يوم الأحزاب، كان آخر من طعِم، أما عند العطاء، فكان أول من شمَّر عن ساعديه، فحمل الحجارة لبناء المسجد النبوي، وضرب بالمعول لحفر الخندق.

ما أجلها وما أعظمها من خصال، يتأخر القادة عند المغنم، ويتقدمون عند المغرم، فيحوزون محبة الله في المقام الأول، وفي المقام الثاني يملكون قلوب الناس.

أما من وسع الله عليه، فكانت مركبته على سبيل المثال، من حُرِّ ماله، فيعجبني أن يخفف من ذلك، مراعاة لمشاعر الآخرين، مثله تماماً مراعاة الغني لشعور الفقير، والصحيح للسقيم، ومن رزق الولد لمن منعه.

وأستشهد هنا بما قاله القائد الدكتور الشهيد (بإذن الله) عبد العزيز الرنتيسي، "العزيمة للقائد والرخصة لعموم الناس"، ومع أنه ذكر هذه القاعدة الراقية، معلقاً على عرضٍ، قدَّمه له أحد قادة العدو، يقضي بالإفراج عنه، شريطة التوقيع على ورقة أعدت مسبقاً، إلا أنني أرى

أن العزيمة ليست فقط في التعامل مع العدو، وإنما تعم جوانب الحياة كلها، في العبادة، والمعاملة، والأقوال، والأفعال، وغيرها.

وحاشَ لله أن أُضَيَّقَ واسعاً؛ بل إنه الذوق الرفيع، وهو من أعظم ما جاء به ديننا الحنيف، ولم يسبقنا إلى ذلك دين ولا قوانين وضعية، مهما بلغت من المثالية والخيرية.

بناء على ما قدمنا؛ فإن اعتقال الداعية، أو قتله، أو إخراجه، يعد نصراً وليس هزيمة، وسأُبين صور النصر في كل واحدة:

أولا: صور النصر في الاعتقال:

سأذكر مثالاً واحداً لأسير مسلم، ثبت في وجه الطاغوت، حتى نال الشهادة مقبلاً غير مدبر، إنه الصحابي الجليل، خبيب بن عدي، فقد أسره المشركون في سرية ماء الرجيع، واقتادوه إلى مكة المكرمة، فمكث عندهم مسجوناً، ثم أجمعوا قتله، فخرجوا به من الحرم إلى منطقة التنعيم، فلما أجمعوا على صَلبِه قال: دعوني حتى أركع ركعتين فتركوه، فصلاهما، فلما سلَّم قال: والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت، فكان هو أولَ من سنَّ ركعتين عند القتل، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُبقِ منهم أحداً، ثم أنشد:

لَقَدْ جَمَّعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا
قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهُمْ مُبْدِي الْعَدَاوَةَ جَاهِدٌ
عَلَيَّ لِأَنِّي فِي وِثَاقٍ بِمَضْيَعِ
وَقَدْ جَمَّعُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ
وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مُمَنَّعِ

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي ثُمَّ كُرْبَتِي
وَمَا أَرْصَدَ الْأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مَصْرَعِي
فَذَا الْعَرْشِ، صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِي
فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ مَطْمَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ
يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
وَقَدْ خَيَّرُونِي الْكُفْرَ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
وَقَدْ هَمَلَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِي حِذَارُ الْمَوْتِ، إِنِّي لَمَيِّتٌ
وَلَكِنْ حِذَارِي جَحْمُ نَار ملفّع
فو الله مَا أَرْجُو إِذَا مِتُّ مُسْلِمًا
عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعًا
وَلَا جَزَعًا إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرْجِعِي[1].

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمداً عندنا تُضرب عنقه وإنك في أهلك، فقال: لا والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.

ثم صلبوا خبيباً، ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بجذعه ليلاً فذهب به فدفنه. وقد رؤي خبيب وهو أسير يأكل قطفاً من العنب وما بمكة ثمرة[2]، كرامة من الله مثل كرامة مريم بنت عمران عليها السلام في محراب بيت المقدس.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (2/ 176-177).

[2] زاد المعاد لابن القيم (3/ 218).

بيع خبيب كالعبيد، فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل؛ ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر[1]، ثم قتل، فهل كان ما وقع له مهانة أم تكريماً وتعظيماً؟!

إنني أرى في هذه الحادثة، التي كان بطلها داعية صابراً مجاهداً، تربى في مدرسة النبوة، نصراً عظيماً، وذلك من خمسة وجوه، وهي كما يلي:

1. **إقامة الحجة:**

حاججهم خبيب بالحجة والبرهان، أقام الحجة عليهم بحركاته وسكناته، بثباته وهدوئه، بخشوعه وصموده، بعدم جزعه من الموت، وإقباله على لقاء ربه، "والله لولا أن تقولوا إن ما بي جزع لزدت"، ومع أن دعوة الإسلام بلغتهم من معينها الصافي فرفضوها، لمَّا قام رسول الله بينهم داعياً ونذيراً؛ "**فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ**"[2]، لكن أهمية هذه الدعوة والحجة من خبيب في أنه أسير، والأسير ضعيف، لا يملك من أمره شيئاً، فقد يغيِّر اعتقاده، أو قناعته، أو رأيه؛ إرضاءً لسجانه، نظير وعدٍ بحرية، لكنَّ خبيبا لم يفعل واحدة منها، فظلت العقيدة والقناعة والرأي على حالها، كما هي حين كان آخر عهده بالنبي، وقريش كلها، القادة والجند، السادة والعبيد، الأثرياء والفقراء، الطيبون والخبيثون، الرجال والنساء، يعجبون لحاله.

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 124).

[2] صحيح البخاري (6/ 111).

كان حرا أسيراً.. عزيزاً وحيداً.. ولم العجب؟!، فلا سيطرة للسجن والسجان على عقلٍ ولا قلب، وليست الكثرة مصدراً للعزة، فهو عزيز في وحدةٍ، وهم أذلاء في كثرة، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾ (الحج:18).

أسدٌ وسط ذئاب غادرة، هي عزة الإيمان، واستعلاء الحق، الذي يتحول معه الداعية إلى أُمَّةٍ في رجل، فيكون داعيةً حانياً، وسفيراً صادقاً، وخصماً شريفاً، ومحاوراً بارعاً، وعسكرياً صلباً، لا يعطي الدنية في دينه، ولا يجاوز الأمر والنهي، فيكون نعم الداعية في أشد موقف، ويقيم الحجة عليهم، فتكون أثراً طيباً في النفوس، لمن كتب الله له الهداية ولو بعد حين.

هكذا كان خبيب، وفي أثره تلاميذه في سجون الطاغوت المسماة (إسرائيل).

2. إقامة الشريعة:

أقام خبيب الصلاة أمام أعينهم، أقامها في المكان الذي حوربت فيه، في المكان الذي أريد له ألا يرتبط مطلقاً بالرب الذي يستحق العبادة وحده، فيقيم شرع الله في مكة ولو وحيداً، يطبق الشريعة بمفرده، فأيُّ مكرمة حظيتَ بها يا خبيب؟!، وأيُّ أجر حزته يا تلميذ رسول الله؟!، إنه أجر مُطَبِّقِ شريعة الله وشرفه في بيئة جاهلية جاحدة، فلا حاكمية إلا له سبحانه، ولا شرع يعلو فوق شرعه.

يقيم الشريعة وهو يصلي لله تعالى خاشعا بين يديه، ليس خوفا من جنود مدججين بالسلاح، ولا سيوفاً مستلة من أغمادها، ولا مقصلة

تنتظر رقبته التي ما خضعت إلا لله، وإنما كان سؤالاً واحداً، يسأله العبد للسيد: هل رضيتَ يا رب؟ وأسئلة أخرى تتلوه، هل كنتُ جديراً بتبليغ دعوة نبيك؟ هل أديتُ الأمانة كما ينبغي؟ إذا كنت كذلك فأرجوك رضاك وجنتك.

كان مع شدة أدبه يهزأ بهم، يهددونه فلا يزيده ذلك إلا صلابة وجلدا، فيغتاظون لشجاعته وبسالته.

أرى في خبيب كل أسير مسلم أقام شريعة الله في نفسه، ثم في مجتمعه (السجن)، إنهم يحاربون شرع الله، وهو يقيمه أمام أعينهم، وعلى مسامعهم، أليس هذا تحديا للباطل وجنده؟ وهل يعد ذلك انتصارا أم هزيمة؟

3. إظهار حب النبي ﷺ:

إنَّ كلمةَ خبيب رضي الله عنه لأبي سفيان، "لا والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه"، تحمل دلالاتٍ مهمةً، ورسالةً عظيمة، إنه خير موضع يتضح فيه الموقف الحقيقي من النبي الكريم، فهنا يمتاز الحب الصادق من الأقوال الجوفاء.

كان سؤال أبي سفيان لخبيب قياسا للرأي العام؛ لمعرفة مدى تعلق المؤمنين بالدعوة وقائدها، وبناء على تلك النتيجة، سيتم تحديد السياسة التي سَتُتَّبَعُ مع الجماعة المؤمنة، وسيتم اتخاذ التدابير والإجراءات، الكفيلة بتحقيق الأهداف، التي تحدَّدها السلطة وهيئاتها التنفيذية.

توصلت قيادة قريش ومجلسها المصغر، إلى نتيجة قاطعة تفيد بأن هؤلاءِ يحملون عقيدة قوية، يصعب؛ بل يستحيل تشويشها، ولربما تتزحزح الجبال، وتزداد عقيدتهم رسوخاً، ويلين الحديد ولا تلين، وينفد البحر ولا ينضب عطاؤها، إنها عقيدة التوحيد، كيف لا، ومصدرها رب العزة سبحانه وتعالى، فهو الذي أمر نبيه والمؤمنين بالدعوة إلى دينه، ثم هو يتولى نصرتهم والدفاع عنهم.

كانوا على كفرهم يعرفون صدق انتماء أبناء دعوة الإسلام، لكن هذا الموقف كان صاعقة بالنسبة لهم، فأيُّ حُبٍّ هذا الذي يضحون معه بحياتهم من أجل دعوتهم؟!، وأيُّ مكانة جعلوها لنبيهم في قلوبهم؟!، وهو ما جعل أبا سفيان رضي الله عنه يقول لاحقاً: "ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً".

يحق لنا أن نتخيل إذا كانت مكة فكرت بالاطلاع على قلب خبيب وأمثاله؛ لتعرف إذا كان فيه ما يميزه عن قلوب بني البشر، إذا كان حب الله وحب محمد نقش فيه، فلم يعد أحدهم يذكر نفسه وأهله، فَذِكرُهم لربهم أشدُّ ذكراً، يذكرونه اعتقاداً وعملاً، رغبة ورهبة، حباً واتباعاً لنبيه، الذي أرسله بالهدى ودين الحق.

4. الانتصار الأخلاقي:

أسير يواجه مصيراً قاسياً، يطول السجن، فيطوي سنين العمر، وليس من سبيلٍ للراحة، إلا أن يأتي الأجل وهو على تلك الحال، ومع ذلك لا يُسقط راية الفضيلة، يُسيئون فَيُحسن.. يجهلون فيحلم.. يسقطون فيرتقي.. يترفع بمبادئه.. ويعلو بأخلاقه.

ليس معنى ذلك أن يذلَّ لطاغية، ويستكين لقراراته وأنظمة سلطته، وإنما كلما ازدادوا خِسَّةً، ازداد هو رِفعةً، فهم يستمدون دستورهم من الأرض، ويستمده هو من السماء، والفرق بين الأرض والسماء كالمسافة بينهما، فالأرض سفلية، والسماء علوية، والشياطين أرضية، والرحمن على العرش استوى، إذن تُرَبّيهم الشياطين، والله هو الذي يربيه، فلا عجبَ من أخلاقهم وأخلاقه، وما أبلغ ما قاله ابن الصيفي:

مَلَكنا فكان العفوُ منا سجيّةً

ولمَّــا ملكتــم سَالَ بالدّمِ أبطــَحُ

وحلّلتُمُ قتل الأُسارّى وطالما

غدونا عَلَى الأسرى نَمُنُّ ونصفحُ

وحَسبُكُمُ هذا التفاوت بيـننا

وكــلُّ إنــاءٍ بالذي فيــه ينضــح

الداعية المجاهد خبيب رضي الله عنه، يستعير موسَ حلاقة من ماويةَ مولاةِ حجير بن أبي إهاب، وقد حُبس خبيب في بيتها، فطلب منها حديدة؛ ليتطهر بها قبل قتله، فبعثت إليه موساً، مع غلام من البيت، فلما وصل إليه الغلام، تنبهت لخطورة صنيعها؛ إذ ظنت أنه ربما يصيب ثأره بقتل الغلام، فلما ناوله الحديدة، أخذها منه، ثم قال: "لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليَّ، ثم خلَّى سبيله"[1].

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 126).

هذه أخلاق دعاتنا، لا تغيّرها المحن والفتن، فتن الفقر والغنى.. الخوف والأمن.. الشدة والرخاء.. الابتلاء والتمكين.. ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:35).

يسيرون بين الناس بهذه القيم والمبادئ، لا ينتقمون لأنفسهم، حتى أثناء مواجهة العدو الذي أخرجهم من أرضهم، وتطاول على مسرى النبي الكريم ﷺ، واعتدى على الحرمات، فحينما تضغط أيديهم على الزناد، تخرج مع كل رصاصة أو قذيفة حظوظ أنفسهم، فهم يقاتلون امتثالاً لأمره، وَيكُفُّون امتثالاً لأمره، يقاتلون الطغاة ليخرجوهم من حيث أخرجونا، فإن عرض لهم شيخ أو طفل كفوا أيديهم.

"أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك"[1]، هكذا يهدّئ روعها على وليدها[2]، مهلاً أيتها النفس الجزعة، إنه واحد ممن رباهم محمد، كنا ندعوه الصادق الأمين، فلا ريبَ أن خبيباً تأسَّى بِخُلُقِهِ، فما علمهم نبيهم الكذب والغدر، وما ينبغي لهم، تذكر ذلك في نفسها، فتسكن روحها بعد جزع، ويطمئن فؤادها بعد فزع، ترى رحمة منه وإخلاصاً، ومنهم ترى غلظة وضلالاً، فتختار ماوية الإسلام، لما رأت من أخلاق ذلك الداعية الفذ[3].

إنها نفحة من نفحات معركة القيم والأخلاق والفضائل، ينتصر خبيب بأخلاقه، فتكون دعوة إلى الله تعالى، يهتدي بها من يكتب الله له السعادة الأبدية، ويصابر الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي،

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (11/ 31).

[2] قيل إن الغلام هو ابنها كما ذكر ابن هشام.

[3] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 126).

فتكون دعوة ممتدة، تغيظ العدو، وتهزُ كيانه، ويهتدي بها إخوانهم، الذين يكابدون التضييق والملاحقة والحصار، يتقوى أحدهم على بلائه، إذا ذكر ابتلاء إخوانه في السجون، فيثبتون عند الشدائد، وربما يكتب الله بها الهداية لآخرين، فيختارون الإسلام عن حبٍ وقناعةٍ ورضىً.

5. معرفة أساليب الباطل:

كان خبيب يعرف آسريه معرفة جيدة، فقد تعامل معهم قبل البعثة في مجتمع مكة، لكنه اليومَ يعرفهم معرفة أخرى، فالمعرفة عن الخصم قبل تعارض المصالح شيءٌ، وبعدها شيءٌ آخر، إنه مختلف اختلافاً جذرياً، إنه يحيط الآن بكل شيء، الخطة العامة.. الخطط التفصيلية.. الوسائل.. الأدوات الثابتة والمتغيرة.. وهو يعرف يقيناً الأهداف المرحلية، والهدف الكبير، الذي رسمت لأجله كل تلك السياسة، والأهم من ذلك؛ فإنه بات يعرف حقيقةً مهمةً، تتعلق بقوة دعاة الرذيلة، التي لوحوا بها على الدوام؛ لتخويف دعاة الفضيلة، تبين أنها سلطة قوة زائفة، إنه كيان هشٌ، ضعيف، مهزوز.

راقب سياستهم مطولاً، عن قرب شديد، فَأُتيح له أن يخترق عقولهم، إنه الآن يقرأ أفكارهم، ويتوقع قراراتِهم، فيهيئ لها استعداداً على الصُعُد كافة، ما أرادوا شيئاً إلا سبقهم إليه، وما نفذوا خطة للنيل منه، إلا حولها إلى رقابهم، فإذا وَجَّهوا له ضربة امتصَّها، فحوَّلها لهم ضرباتٍ، وليس بالضرورة أن تكون مؤلمة جسدياً، فيكفي أن تكون قاتلة نفسياً.

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (التوبة:120).

وتأمل أيها المؤمن كلمة ﴿**نَيْلًا**﴾، لقد جاءت نكرة، فهي لم تحدد طبيعة ذلك النيل من العدو، وهذا من رحمة الله تعالى، فهي تشمله كُلَّه، سواء كان سياسياً، أو اقتصادياً، أو إعلامياً، أو الكترونياً، أو فكرياً، أو عسكرياً.

وظني أن أعظم ذلك النيل وأفضله، عندما تنعدم الوسيلة بيدك، فتكون أعزلَ من كل شيءٍ، إلَّا من فكرة تصنعها عقيدة، فإذا راودوك عن ترك الرسالة استعصمت، وإذا حاربوك ثبت، فتنتصر القوة الأخلاقية على القوة المادية.

ثانياً: صور النصر في القتل:

وهي ثلاث كما يلي:

1. نيل الشهادة في سبيل الله:

هذه المكرمة العظيمة، هي غاية الأنبياء والأولياء في الدنيا؛ ليبلغوا بها الأمنية الأغلى، والغاية الأسمى، وهي رضوان الله تعالى، قال تعالى: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ (آل عمران:140).

﴿**وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ**﴾: إنه الاختيار الإلهي، والاصطفاء الرباني، لمن صفت نيته، وحسنت سريرته، وتوقدت فكرته، فحكم شريعته، ونصر أمته.

2. حياة الأمة:

إن قتل الرسول أو الداعية حياة للأمة من بعده، فلم تكن الشهادة أبداً، موتاً للفكرة، وانتهاءً للقضية، إنها حياة جديدة تبعث في نفوس الحواريين، رغبة عظيمة أن يكونوا أنصارَ الله، فعلى سبيل المثال ذلك الغلام، الذي عرَّف الحاكم الطاغية، كيف يمكن له أن يقتله، ففعل فلما قُتل كانت حياةً للأمة، فقد نهض قومه للحق، فصبروا على الأذى، حتى قُتلوا جميعاً في سبيل الله.

وكذلك حال شهداء فلسطين، فكلُّ شهيدٍ كان يُحيي به الله سبحانه وتعالى قلوب أناس من داخل الوطن وخارجه، إنك تشعر ببركة إخلاص ذلك الشهيد، ومنزلته عند ربه، في عدد الذين يسيرون على منهجه، ويحملون رايته من بعده.

3. انتشار المبدأ:

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (آل عمران:169)، أولئك العباد شُرفُوا بأن كانوا أحياءً في الدنيا، وأحياءً في الآخرة، فالجزاء من جنس العمل، ففي الدنيا عاشوا حياة كريمة؛ لأنهم جعلوا حياتهم كلَّها لله تعالى، أما في الآخرة فقدَّموا أرواحهم من أجل دين الله، فَرُزقوا جواره سبحانه.

وهاك تِبيانَ وجه حياتهم في الدنيا وفي الآخرة:

الحالة الأولى: ﴿أَحْيَاءٌ﴾ في الدنيا:

وهبوا حياتهم للإسلام فوهبت لهم الكرامة:

أ- في البداية وطَّنوا أنفسهم، امتثلوا لدقيق الأوامر وعظيمها، فلا يجاوزون الأمر والنهي، يقتربون حين يسجدون، ويرتقون بعدما يتقون.

لا يمدون أعينهم لزهرة الدنيا، ولا يغرنهم متاع قليل للكافرين، فالدنيا عندهم محطة يتزودون بها للآخرة، فلا تلهيهم تجارة فيها ولا بيع، عن إقامة شرع الله، ونصرة دينه، وحينما يسألونه سبحانه أن يطيل أعمارهم، فمن أجل غاية واحدة، هي نشر دين الله في العالمين، فلا تبقى أرض إلا وتحكمها شريعة السماء.

وهم لا يفهمون الإسلام محراباً فحسب، فتراهم يخالطون الناس، يعلمون الجاهل، ويذكرون الغافل، يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيراً، ولا يبغون بذلك جزاء ولا شكوراً، ثم لا يرون لأنفسهم فضلا على أحد، فالتوفيق منه وحده.

نفوسهم ذليلة على مؤمن، عزيزة على كافر، لا يرون متعة الحياة، إلا في الدعوة والجهاد، فيكون أحدهم ودوداً لَيِّنَ الجانب في ميادين الدعوة، وهو هو صاحب شكيمة وبأس شديد في خنادق الجهاد.

ب- كانوا بين الناس أحياء، بخلقهم وذكرهم، إذا حضروا ذكَّروا، وإذا غابوا ذُكروا فذكَّروا، وإذا تكلموا فَهَّموا، فإذا صمتوا فُهموا فَفَهَّمُوا.

كانوا أحياء بالمنهج، وغيرهم موتى؛ وإن كانوا يأكلون ويشربون، ولا غرَو في ذلك، فعن أبي بردةَ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه،

قال: قال رسول الله ﷺ: **"مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ"**[1].

وذكر الله على حالين:

الأول: ذكر اللسان:

جاء في سنن ابن ماجة بسند صحيح، من حديث أبي هريرةَ عن النبي ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول: **"أنا مع عبدي إذا هو ذكرني، وتحركت بي شفتاه"**[2].

الثاني: ذكر الجوارح:

قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ (البقرة:152)، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء.

وعلى أهمية ذكر اللسان وفضله؛ فإن ذكر الجوارح أعلى درجة، وأعظم منزلة، وبخصوص تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾، أراني أميل جهة قول ابن عباس رضي الله عنهما: "اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي"، فهو يعبر عن المراد المقصود، فهو ذلك الذكر الذي تشارك فيه الجوارح كلها، فذكر القلب اختيار وانقياد للإسلام طواعية، وذكر العقل فكر ونظر دائم في تعبيد الناس لله، وذكر اليدين

---

[1] صحيح البخاري (8/ 86).

[2] سنن ابن ماجه (5/ 331).

مرة تحمل بها مصحفاً، ومرة تقبض بها على بندقية، وذكر القدمين وقوف بين يدي الله، وسير لنصحٍ، أو إعانةٍ، أو رباطٍ في ليلة باردة.

إن الحبَّ يُعُّد ناقصا إذا اقتصر على القول دون العمل، وكذلك الذكر، فإذا أعلن أحدهم حبَّه للنبي ﷺ، واكتفى بالصلاة عليه بلسانه، دون اتباع تام لمنهجه، فإنه ربما يأخذ أجر الصلاة عليه، لكنه لن يأخذ أجر الاتباع، وإذا ذكر أحدهم الله تعالى بلسانه، ولم يذكره بجوارحه، فسيأخذ إن أكرمه الله أجر ذكر اللسان، لكنه لن يحظى بأجر ذكر الجوارح.

فإذا كان أحدنا لا يقبل في دنياه أن يعلن ولده حبه له قولاً مجرداً من الطاعة؛ فكيف نرضى ذلك في علاقتنا بالله سبحانه وتعالى؟!

هؤلاء هم تلاميذ المدرسة المحمدية، يرفعون عمادها من جديد، بتجديد منهجها في نفوسهم، يفهمون ذكره سبحانه فهماً صحيحاً، فذكروه بإعلاء المنهج، فأعلى ذكرهم.

الحالة الثانية: ﴿أَحْيَاءٌ﴾ في الآخرة:

وهبوا للإسلام أرواحهم فرزقوا الجوار:

أ- فطنوا أن الإسلام أغلى ما يملكون، فوهبوا أرواحهم لله تعالى، ابتغاء نصر دينه، وإعلاء كلمته، وتحكيم شريعته، هم باعوا، والله اشترى، فربح البيع، ونعمتِ الصفقة.

ب- ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ (الرحمن:60)، أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، نَعَم معلقة بالعرش؛ أي رُزقوا جوار الرحمن؛ لأنه سبحانه من ارتضى لنا هذا

الدين العظيم، وهو صاحب الأمر بنصرته والدفاع عنه، والعمل من أجل إعلاء شأنه.

إن قتل المجاهدين والدعاة ضمان لانتشار المبادئ، في أزمنة وأمصار كثيرة، ولأن قومتهم كانت من أجل الله تعالى، فإذا قُتِلُوا عاشوا في كنف الله، وتعيش الفكرة يرعاها الله من بعدهم، فيسخر لها أحياء آخرين.

ثالثاً: صور النصر في الإخراج من الأرض:

في البداية أريد أن أقف عند بعض المعاني، قال الله ﷻ: ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ (الأعراف:82).

الإخراج من الأرض جريمة لم يسلم منها الرسل وأتباعهم، فهي الحلُّ الوحيد عند الأعداء عندما تتعثر كل محاولات الاحتواء، وآخرُ سلاح بأيديهم عندما تفشل مخططات القضاء على حاملي لواء الخير، قال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ (الأنفال:30)، فقد ضاقوا ذرعاً بأولئك الذين لا تلهيهم الإغراءات، ولا تشغلهم عثرات الطريق عن المتابعة للوصول إلى الغاية.

لقد استنفدوا كل خططهم التي أقرتها مؤتمراتهم ولقاءاتهم، فلم يُجدِ الاعتقال ﴿**لِيُثْبِتُوكَ**﴾، ولا قتل الأنصار، أو حتى قتل القادة ﴿**أَوْ يَقْتُلُوكَ**﴾، في القضاء على (الأشرار) أو (الإرهابيين)، إذن فلا يمكن أن نجتمع نحن وأتباع ذلك الدين أو المنهج القويم في أرض واحدة،

ولا يمكن أن يكون مصيرنا مشتركاً، فليكن ذلك العذاب الأليم هو مصيرَ كلِّ من يقف ضدنا ﴿**أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾.

هو عذابٌ أليمٌ لا ريب، فلو لم يكن كذلك لَمَا ذكره القرآن الكريم في عدة مواضعَ، ولَمَّا تألَّم له النبي الكريم ﷺ: "**ولولا أنَّ أَهلَكِ أخرجوني ما خرجتُ**".

نعم لا مكانَ بيننا لمن يريد أن يفسد علينا مصالحنا، كيف نقبل أن نتعايش معهم، وهم ﴿**أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾، كيف تريدون لنا أن نتعامل مع أناس يحاولون أن (يلوثونا) بطهارتهم؟!

عندما تتابع منهج أهل الباطل، تدرك أن منطقهم في القديم والحديث هو ذاته لا يتغير، منطق مصادرة الحقوق وإلغاء الآخر، فهي قريتهم وحدهم ﴿**مِنْ قَرْيَتِكُمْ**﴾، ﴿**مِنْ قَرْيَتِنَا**﴾، وأرضهم خالصة لهم من دون الناس ﴿**مِنْ أَرْضِنَا**﴾، أخرجوهم من كل مكان يمكن أن (يفسدوه) علينا، ليس من الأرض فحسب، بل من المؤسسات والحكومات، وأكثر.. من قلوب الناس أيضاً.

انتظروا.. فأمامكم حلٌّ آخر، وفرصة نمنُّ بها عليكم، فإذا أردتم الفوز بمجاورتنا في ﴿**أَرْضِنَا**﴾، فعليكم أن تعودوا ﴿**فِي مِلَّتِنَا**﴾، ملة الكفر، أو ملة النفاق، لن نسمح ببقائكم طاهرين.. أو ثابتين.. كيف نفعل؟ وقد علمتم استكبارنا: ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾ (هود:27).

لكم ذلك، فربما تقدرون عليه في دنياكم، فتخرجوا أصحاب الدعوات الحق من الواقع الذي تعيشون، لكنا نحسب أنكم تعلمون يقيناً أمرين مهمين:

الأول: أنهم لن يخرجوا أذلة، فلا ينبغي للأنبياء والأولياء إلا أن يخرجوا أعزة، ويعودوا كذلك، وكذا كان حال النبي ﷺ والصحابة، فلفظ ﴿**أَذِلَّةً**﴾ لم يرد أبداً في تهديداتهم، بينما جاء في قول أهل الحق، حينما وجه سليمان عليه الصلاة والسلام، تحذيراً أخيراً لأهل سبأ: ﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (النمل:37).

الثاني: أنكم يا أصحاب العناد والأهواء تحكمون الحاضر فقط وفق أمر الله تعالى، لكنَّ المستقبل قطعاً ليس لكم؛ بل لمن مَسَّتهم البأساء والضراء وزلزلوا: ﴿**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ (إبراهيم:14)، إذن فلتقضوا ما يشاء الله سبحانه وتعالى له أن يكون، إنما تقضوا هذه الحياة الدنيا.

فإلى المؤمنين: لن تسلموا من العذاب والاضطهاد، ودون شك ستصادر حقوقكم ومكتسباتكم وإنجازاتكم، فلا بأس عليكم إن أخرجوكم من كل شيء، إلا من مِلّتكم.

الإخراج آخر سلاحٍ للباطل، والرصاصة الأخيرة المتجهة إلى صدر الحق، فلم يكونوا يعلمون أن إخراج النبي والمؤمنين من مكة كان خيراً عظيماً، تبعه الفتح، ومن سار على طريقهم في الضلال من بعدهم، لم يدرك أن إخراجنا من أرضنا، هي الخطوة الأولى لعودتنا،

فمن شعبنا من يعيش التهجير، ومنه من يعيش التهجير والحصار، ولن يدوم ذلك، فانتهائُهما قريب، فكيدهم في تباب، ومكرهم إلى زوال.

لقد أقام النبي ﷺ دولته، أما المهجَّرون من أرضهم، فأسَّسوا لهم كياناً في غزة، استطاع بعد فترة أن يطرد الاحتلال، وهو باقٍ على عهده، متربّصٌ بعدوِّه، حتى يأتي أمر الله، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

أما صور النصر في إخراج المؤمنين من أرضهم، فهي ثلاثٌ كالتالي:

1. نشر الدعوة:

تركت الهجرة القسرية للنبي ﷺ، والصحابة الكرام، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، آثاراً صعبةً على الواقع الصحي والاجتماعي والاقتصادي، لكنها كانت منطلقا نحو فتح آفاق جديدة للدعوة الإسلامية.

كانت الهجرة الفلسطينية كذلك، آلاماً وأحزاناً، لكنها عرفت العالم بالقضية الفلسطينية، من خلال أبنائها الذين هُجِّروا خارج الوطن.

2. التواصل مع العالم:

بعد أن ثَبَّتَ المهاجرون أقدامهم في المدينة المنورة، شرعوا في فتح علاقات جديدة مع الكيانات السياسية المجاورة، فلم تعد مكة تستطيع تكميم الأفواه، وتقييد الأيدي، كما كان عليه الحال سابقاً.

لقد كانت الهجرة من الأرض قاسيةً بكل المقاييس، لكنها لم تكن النهاية، فلم يمنعِ الوضع الجديد أصحاب القضية العادلة من ترتيب

أوراقهم، وإعادة تشكيل علاقاتهم؛ بناء على الموازنة بين المصالح والمفاسد، والتخطيط بمنهجية للعودة إلى الأرض التي أُخرجوا منها.

3. تأسيس قوة عسكرية للدفاع عن الحق:

كانت الهجرة النبوية بداية مرحلة جديدة، من مراحل الصراع بين الحق والباطل، فمنذ اللحظة التي وصل فيها قائد الدعوة إلى البلد الجديد، بدأ التفكير في تشكيل قوةٍ للحق تحميه وتدافع عنه، وتتطلع للهدف العظيم، وهو تحرير الأرض؛ ليعلو فيها ذكر الله، ويحيا فيها الناس آمنين على أنفسهم، لا يُضارُّون في شيءٍ من حقوقهم.

وهذا ما كان للمهجرين إلى غزة، رابطوا في جزء من الوطن، إنهم تحت نظر عدوهم، الذي يملك قوة مادية هائلة، لكن لم تفلح الترسانة العسكرية، ولم ينجح التطور التكنولوجي، في منع غزة من التسلح بالقوة، فلا ريب أن التسلح بالإيمان، يحتاج تسلحاً بالقوة، لترد الحق إلى نصابه، وتكبح جماح الباطل، وهنا لابد من أربع وَقفاتٍ للمقارنة بين السيرة النبوية، وصمود غزة؛ ولن تجد لسنة الله تبديلا.

الوقفة الأولى: شبهة ورد:

يروج بعض المغرضين أن الانتفاضة أو المقاومة، كانت شراً على الشعب الفلسطيني، وحجتهم في ذلك أن المعابر كانت مفتوحة، يستطيع الناس التنقل للعمل داخل فلسطين المحتلة، وكذلك السفر للخارج للدراسة العلاج، إضافة إلى سهولة الحصول على البضائع.

وأقول: بهذا المفهوم تصبح الدعوة المحمدية شراً على النبي ﷺ ومن آمن معه!

لقد تغيَّر حالهم من الراحة إلى المشقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الحرية إلى الاعتقال والتعذيب، ومن الحياة إلى الموت، ومن فيض الطعام والشراب إلى انقطاعه في الحصار.

يُعذَّب بلال، ويُضرب ابن مسعود لقراءة القرآن عند البيت، وتستشهد سمية، ويبكي الصبية جوعاً، ورسول الله ﷺ، لا يزيد أن يدعو لهم، ويَعِدَهم مغفرة من الله وفضلاً.

ثم دارت الدائرة، فرفع الله دينه، وأعزَّ أولياءه، فكانت الدعوة الإسلامية خيراً، لم يُصِب من آمن بها وعمل لها فحسب، بل فاض خيرها حتى أصاب العالمين من بركاتها، مؤمناً أو كافراً.

إن الأمور لا تُقاس بأعوامٍ، ولا بتضحياتٍ جسام، فضلا أن العدو إذا فتح لك باباً من خير، فإنه لا يفعلها لأجل الله، إنما يبغي أن يصدك عن الإسلام، يريد منك إسلاماً يحدد هو أركانه وشروطه ونواقضه، فإن قبلت كنت عنده مرضياً، فإذا عدت إلى منبع الدين الصافي (الكتاب والسنة)، ففهمت وأردت العمل، حاربك بشتى الوسائل وأقذرها، وحينئذٍ كنتَ عند الله مَرضِيًّا، فأيُّ الرضوانين عندك أعظم؟ وأيهما أنفع لك وللمجتمع في الدنيا، وخير وأبقى لكم في الآخرة؟

الوقفة الثانية: صبر فكرامة:

ليس غريباً أن تكون أكثرُ صور النصر كامنة في الاعتقال، فقد ذكره الله أولاً، قبل القتل، أو الإخراج من الأرض، لهذا فإن هؤلاءِ لهم كرامة خاصة في الدنيا.

تقول ماوية "كان خبيب عندي حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً وإنَّ في يده لَقِطفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه وما أعلم في أرض الله عنباً يُؤكل"[1].

قطف عنب ربما حُمل له من الجنة، جزاء صبره، وإعداداً للنفس الطيبة، التي سترتقي بعد قليل، وتصير إلى دار النعيم المقيم، وأنتم أيها الأسرى المتمسكون بحبل العقيدة المتين، تُكرَمون بحكمة يؤتيكم الله إياها، إعداداً لكم؛ لتحرير البلاد والعباد، قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (البقرة:269).

الوقفة الثالثة: رفع ورفع:

في سنوات الحصار على غزة، عوَّض الله أهلها خيراً، بأن ساق لهم كثيراً من دول العالم إليهم، ورفع ذكرهم بين الناس، وهذه وتلك من نعم الله سبحانه، فإذا اخترتَ أمر الله وقدمته على كل أمر، سخر لك من يقف معك، وإذا رفعتَ منهجه فوق كلِّ منهج، رفع ذكرك، ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ (الشرح:4).

وهذه لكل فرد أو جماعة أو دولة، فاذا رفعت شرع الله، رفع الله ذكرها، وهذه عاجل بشرى الجماعة المؤمنة، فقد رفع الله ذكر غزة، فلا يكاد أحد في العالم لم يسمع بها، ثم تأتي النتيجة، تحصيل حاصل، ونهاية محتومة، وهي انتهاء الحصار، فقد قيض الله للمؤمنين في مكة، نفراً من المشركين، من أهل المروءة والنخوة، يرفضون الحصار فيسقطونه، يبور إذن مكر مكةَ بمؤمنيها، وسيبور مكرهم بغزة، فيكون

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 126).

مصير الحصارين واحداً، يُرفع الحصار، فيبور صنيعهم، ويبور المال الذي أنفقوه، والوقت الذي ضيعوه، ﴿**وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ**﴾ (فاطر:10).

رفعان إذن حقٌّ للفئة المؤمنة أن تحوزهما، بعدما رفعت المنهج القويم، وهما: رفع الذكر، ثم رفع الحصار، ولن يقدم الرفع الثاني على الأول.

الوقفة الرابعة: حصار وهجرة:

كان الحصار في العام السابع لبعثته ﷺ، واستمرَّ إلى العام العاشر، ودليل ذلك ما ذكره ابن عبد البر: "وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب بعد عشرة أعوام من المبعث"[1].

أما الهجرة إلى المدينة فحسب قول ابن إسحاق، كانت بعد ثلاثة عشر عاماً من البعثة، وعمره ﷺ يومئذ ثلاثٌ وخمسون سنة[2].كانت الهجرة إلى المدينة المنورة، بعد ثلاثة أعوام من انتهاء الحصار، لقد خرجت الجماعة المؤمنة الأُولى بعد حصار مكة ثابتة على دينها، ثم تستعد للهجرة وإقامة الدولة، أما الجماعة المؤمنة في بيت المقدس وأكنافه، فتستعد بإذن الله للتقدم خطوة جديدة نحو إقامة الدولة.

ثلاثة أعوام فقط تفصل بين مرحلتين فارقتين، الدعوة والدولة، الحصار والانتشار، رصُّ الصفوف وشحذ السيوف.

---

[1] زاد المعاد لابن القيم (3/ 26).

[2] السيرة النبوية لابن هشام (2/ 135).

والفرق أنه في حالة شعب فلسطين، كانت الهجرة أولا ثم الحصار، فالصهيونية أخرجت شعباً من أرضه لتقيم كيانها، فلما رأت أن من بقي من هذا الشعب، سيما في غزة، يُعِدُّ العدة؛ للقضاء على الكيان الظالم، قرَّرت أن تقتل فكرة الجهاد بالحصار.

إنني أرى أن مرحلة زوال الحصار قريبة جداً، ثم يعقبها سنوات يجِّهز فيها أتباع الحق صفوفهم، ويعيدون تجميع الأمة من خلفهم، ثم يَنقَضُّون على عدوهم، فيطهرون أرضهم، ولا أدَّعي في ذلك عاماً بعينه، فقد سبقني إلى ذلك عدد من أهل العلم والصلاح، لكني وإياهم على ثقة بوعد الله لعباده الموحدين.

الفصل الثاني: أنواع النصر

النصر ستة أنواع، وهي كما يلي:

أولا: النصر الروحي:

هذا بلال بن رباح رضي الله عنه، على موعد مع مواجهة قاسية، فقد أضمر له أمية بن خلف شرا، فإما أن يرجع عن دينه، وإلا سيمسه عذاب أليم، فيأبى من عرف الحق، أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، ويختار أن يمسه عذاب الدنيا، على أن تكتب له النجاة من عذاب الآخرة.

عرفوا ألا فائدة من محاورته، فكان قرارهم أن يعود صاغرا بالقوة، وبقي أن يختاروا الوقت المناسب، حميت الظهيرة فكانت الإشارة مباشرة من الطاغية لجنوده، اقتادوه إلى بطحاء مكة، طرحوه أرضا، فوضعت صخرة عظيمة على صدره، منعته من الكلام، إلا من ذكر الله، وفي صدورهم صخرة الكبر، تذكر كل شيء، عدا الله.

يصبرون قليلا حتى يرجع من تلقاء نفسه فلا يفعل، ثم يقول له أمية في غرور: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، يعلو صوته غضبا فينتبه المارة، ويقف بعضهم ليعرف ما الخطب، ينظر بعضهم تشفيا، وبعضهم ألما.

يتكرر المشهد، وفي كل مرة يقلب فيهم بصره، وكأني بأحدهم عند رأسه يرفع السوط مهددا، وآخر عند قدميه يحمل الخمر مؤملا، ثم ينظر إلى أمية، انتفخت أوداجه، والشر يتقاطر من عينيه، نفذ صبره،

وخارت قواه، يريد أن يسمع عبارات الندم والأسف، ينتظر أن يتلقى طلب استرحام، إعلان براءة من دين محمد ﷺ، يريد أن يسمعها جميعا، أو أيا منها، المهم أن يسمع شيئا يحفظ كبرياءه، إنه في قرارة نفسه، يقبل أن يسمع ندما ولو كان مشروطا، فربما يكافئه بالمال، مع أنه كان ولا زال ينظر إليه أنه عبد، لا يستحق أكثر من لقيمات، وملابس بالية، يتفضل بها عليه، لكنه وهذه حاله، يتطلع لما يحفظ ماء وجهه، وإلا فهي الفضيحة الكبرى في مكة وما حولها من القرى.

أما بلال، الذي ذاق حلاوة الإيمان، يذوق اليوم أيضا لذة العذاب في سبيل الله، يحاول أن يتكلم فيذكر الصخرة التي تخنقه، لكن هل يبقى صامتا أم يرد ردا دبلوماسيا؟ ليس هذا موضع إرضاء الباطل، فلابد من المفاصلة، ثم يخطر بباله كيف يشرح دينه؟ وبأي كلمات يرد عليهم؟ فلا يجد أبلغ ولا أعظم من: أحد، أحد.

يقولها فترددها معه الحصى والجبال والأودية، ترددها الطير والسباع، يرددها كل شيء إلا هم، قبلتها الحجارة الصماء، ولم تقبلها قلوبهم المطبوعة بالكفر والجحود، مع أن نفوسهم عرفت أنها الحق، ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (النمل:14).

كلمة واحدة ترتجف لها أفئدتهم، ويهتز معها كيانهم، فما أثبت صاحب الحق، حين يشد أزره بعقيدته، ويرفع رأسه بحقه، فما أراه بعدهما إلا جبلاً أشمَّ راسخاً، يحاورونه فيدمغ باطلهم بحقه.. يساومونه فيركل صغائرهم بقدمه.. يهددونه فيجيب الواثق بربه: وأين أمركم من أمره!

يسمعها ورقة بن نوفل صافية عذبة، ذلك أن جاهليتهم لم تخدش قلبه، يسمعها فيقول: أحد، أحد والله يا بلال لن تفنى، ثم يقبل على من يفعل ذلك به من بني جمح، وعلى أمية فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا[1].

وعارض الذهبي في سير أعلام النبلاء هذا النص، ذلك أن ورقة بن نوفل، مات في فترة الوحي، بعد النبوة، وقبل الرسالة، وعند الشوكاني في فتح القدير، أن الذي تصدى لأمية، وقال تلك العبارة، هو زيد بن عمرو بن نفيل.

أما قوله: "حنانا" فقال الأزهري[2] في معناها، أي: لأترحمن عليه ولأتعطفن عليه؛ لأنه من أهل الجنة[3].

ثم يمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهم على حالهم معه، فيقول لأمية بن خلف ألا تتقي الله في هذا المسكين، يقول مستكبرا أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فيرد أبو بكر أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، يقبل أمية، فيعطيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه، ويأخذ بلال فيعتقه[4].

---

[1] السيرة النبوية لابن إسحاق (ص:65).

[2] محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الهروي، أبو منصور الأزهري، اللغوي صاحب "تهذيب اللغة". طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (3/ 34).

[3] فتح القدير للشوكاني (3/ 465).

[4] السيرة النبوية لابن هشام (2/ 160).

بلال رضي الله عنه، ثبت على دينه، وصفع الطاغوت بقوة الحق، فكان الناس منه على أربعة أصناف، ثلاثة فاعلة، وصنف رابع خامل، وهم:

الأول: أمية بن خلف وجنده:

استكبروا على نداء الفطرة، فحاربوا دعاة الفضيلة، إنهم يعلنون حربا مفتوحة على أصحاب الدعوة، حربا إعلامية، ودبلوماسية، واقتصادية، وسياسية، وعسكرية، حرب ليس فيها شرف، المهم فقط أن يتم القضاء على هذه الدعوة ورجالاتها، فلا يسمع لهم صوت، ولا يلحق بهم أحد.

أمية وأمثاله من قادة الضلال في كل زمان ومكان، عرفوا الحق فزاغوا عنه إرضاء لمصالحهم، أما جنود أمية وأمثالهم في الدنيا، فهم واحد من ثلاثة: إما حاقد على أصحاب الدعوة، يطلب ثأرا شخصيا، كما كان من آسري خبيب رضي الله عنه، وإما: صاحب مصلحة، رأى الوظيفة والمنصب والمال مع هؤلاء، فخضع لهم بالولاء والطاعة، وإما جاهل أحمق، غيب عقله، فإن أُسمع كرر كببغاء، وإن أُمر نفذ ككلب أراه سيده الطعام، وهؤلاء جميعا آثمون، ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ (القصص:8).

الثاني: ورقة بن نوفل أو زيد بن عمرو بن نفيل:

ذكرهم بالحق، فلما أعرضوا أنكر عليهم، وأدى واجبه في النصرة، أنكر بلسانه، كان بمثابة وسيلة إعلام شريفة، يبين الحق من الضلال، ووضح للناس أن قتله ليس لجرم ارتكبه، وإنما يقتلونه على كلمة التوحيد، فكان محرضا على التصدي للظلم والظالمين.

وأنت ترى اليوم من يفعل هذا من المسلمين ومن غيرهم، يقف في وجه الظلم، مساندا للحق، ومدافعا عن أهله، قلبه حي بالفطرة السوية، التي ترفض الظلم، وتنتصر للمضطهدين، يرفعون أصواتهم فلا يرتد الصوت دون إجابة من أصحاب الهمم العالية.

الثالث: أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

ذكرهم بحقوق الإنسان، التي يجب أن تحترم، يتساوى فيها الناس جميعا، الحاكم والمحكوم، الغني والفقير، الأسود والأبيض.

فلما رفضوا تقدم خطوة عظيمة، وهي إحقاق الحق بقوة المال، قال تعالى: ﴿**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى**﴾ (الليل:18).

والزكاة زيادة ونماء، فيتزكى في الدنيا بأن تطيب نفسه، ويتزكى في الآخرة فرحا بما أعده الله له، ذلك الذي أنفق ماله في سبيل الله، ابتغاء وجه الله تعالى، والمعني هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل إنها في أبي الدحداح، لكن أغلب أقوال المفسرين، على أنها نزلت في أبي بكر.

قال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لابي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعنيه؟ فقال: نعم، أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبدا لأبي بكر، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركا، فحمله أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له ماله، فأبى، فباعه أبو بكر به. فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى**﴾[1].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (20/ 89).

وانظر إلى المقارنة بين حالين متناقضين في السورة، هما: الأشقى والأتقى. قيل الأشقى وجعل مختصا بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل الأتقى، وجعل مختصا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه، يتزكى من الزكاء أي يطلب أن يكون عند الله زاكيا[1].

وأرجح أن الأشقى المقصود في الآية، هو أمية بن خلف، فسياق الآيات يشير إليه، فهو بخل واستغنى، وأبو بكر أعطى واتقى، وذلك سيرا على منهج السورة، الذي يذكر الشيء وضده، الليل والنهار، الذكر والأنثى، اليسرى والعسرى، الآخرة والأولى، الأشقى والأتقى.

وإذا كانت ﴿الْأَشْقَى﴾ و﴿الْأَتْقَى﴾، توضح حالين، هما: حال الشقاء وحال السعادة، فإن ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ و﴿ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾، تكشف عن منهجين لإمامين، إمام من أئمة الضلال، وإمام من أئمة الهدى.

الرابع: الصامتون:

الصنف الرابع الذي لم يذكر مطلقا، فهم الذين كانوا يرون حاله، فلا يتدخلون بشطر كلمة؛ لإحقاق الحق، فالأمر لا يعنيهم، مادامت حياتهم مستقرة، ومصالحهم غير معطلة، فكان جزاء هؤلاء الصامتين، أن يصمت عنهم التاريخ فلا يذكرهم.

وهكذا يكون الناس من أصحاب الدعوات، لكن مهما بلغوا من الظلم والكيد، فماذا يفعلون بأناس اختاروا الحق، وبذلوا لأجله أغلى ما يملكون، فهم إما بلال أو سمية الذين انتصرا بجسديهما رغم ضعف

---

[1] الكشاف للزمخشري (6/ 388).

الجسد، وورقة (على أحد القولين) الذي انتصر بصوته رغم هرمه، وأبو بكر الذي انتصر بماله رغم قلته إلى مالهم، ولكن ذلك الجسد والصوت والمال، لم يكن لهم لينتصروا، لولا المعية الربانية، التي أنارت أرواحهم، فساروا بنور الله، فذلك هو النصر الروحي.

هو ذلك النصر، الذي يرقى به بلال سطح الكعبة فيؤذن يوم الفتح، والناس من حوله ينظرون، فيفرح مؤمنهم ويغتاظ كافرهم لذلك المقام وتلك المكانة، وشتان بين مقام بلال، الذي قادته روحه إلى الأذان على سطح الكعبة، وبين مقام أمية الذي يتسول النجاة له ولولده علي، من عبد الرحمن بن عوف يوم بدر، فيلمحه بلال، وينادي "لا نجوت إن نجا"، فتلاحقهما سيوف المجاهدين، فيصاب أمية ويصرخ صرخة لم يسمع مثلها قط، وتهوي الضربات عليهما، حتى هبروهما بأسيافهم وفرغوا منهما[1].

اللهم ما أعدلك، يقتص بلال من أمية، وعبد الله بن مسعود من أبي جهل، هي واحدة من سنن الله، لا تتغير ولا تتبدل، فمن اتقى وصبر عز وملك، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:90)، ومن جحد واستكبر هان وذل، ومثاله ما حصل لفرعون وقومه، قال تعالى: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾ (الدخان:25-28).

---

[1] انظر تهذيب سيرة ابن هشام (1/ 199)، ودلائل النبوة للبيهقي (3/ 93)، وصحيح البخاري (3/ 98).

وأنا على يقين أن يوما ما، سيشهد قصاص بلال الفلسطيني من ظالمه الصهيوني، أما سمية التي اعتقلوها فعذبوها، ولم تكشف لهم عورة التنازل عن الدين أو الوطن، قتلت بيد الحقد، ولم تكشف لها عورة، فاستشهدت وهي مشدودة عليها ثيابها، وستقتص لها إحدى شقيقاتها من قاتلها.

ثانيا: انتصار المبدأ:

لم يحتملوا رؤية مزيد من الانتصارات تحققها الدعوة الجديدة، فلم يعد أنصارها من الفقراء والضعفاء فحسب، بل انضم إليهم الأغنياء والأقوياء، فقد أسلم حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهذا هو مفهوم القوة عند قريش، وإلا فكلهم أغنياء بالإيمان، وأقوياء بالحق الذي يحملونه، أما رأيتم قوة عبد الله بن مسعود، وهو يجهر بالقرآن عند الكعبة، رغم دقة ساقيه، وضعف جسده.

وعلى كل فمن يفهم القوة بهذه الكيفية، لا بد أن يراها في خصمه، بمعنى أن إعداد القوة المادية ضرورة لردع الباطل، الذي يرى القوة من الجانب المادي فقط، ولا يعترف بالقوة الروحية وقوة المنطق.

لقد كانوا من قبل ينظرون إلى هؤلاء بأنهم شرذمة قليلون، وسيعودن عن لوثتهم الفكرية عاجلا أم آجلا، وهم فئة ضالة لا تستحق أن تحاور، أما اليوم فهي يطلبون اللقاء، يلتقون برسول الله ﷺ، فيفرح ظنا منه أن قلوبهم هي التي طلبت لقاءه، لكن الحقيقة هي أن تلك القلوب موصدة دون الحق، عرضوا ما لديهم، كان عرضا

دنيويا سخيا جدا، لكن ليس له في الآخرة من نصيب ولا وزن، المال، والشرف، والملك، اختر يا محمد، أي الثلاثة تريد، فإن لم تقبل أيا منها، فيقينا أصابك الجن، ولك علينا أن نبذل أموالنا في علاجك.

ولقد علمتم أنه ليس كذلك، فقد رد مقالتكم واحد من شياطينكم، من أشد أعداء الدعوة، إنه النضر بن الحارث، فليس محمد ساحرا ولا كاهنا ولا شاعرا ولا مجنونا[1]، ولو كان يريد المال لسلب أموالكم، لكنكم أنتم من سميتموه "الصادق الأمين".

الجنون فرية منكم، فلقد عرفتم رجاحة عقله، وتأكد لكم ذلك يوم اختلفتم في وضع الحجر الأسود، لكن وفق عرفكم من يرفض تلك العروض يعتبر مجنونا، فكيف يرفض الدعاة المال والشرف والملك؟ لم يقبلوا بما تعرضه عليهم دول عظمى؛ لأن ذلك يعني التخلي عن الدعوة، التخلي عن الجهاد، التخلي عن الأرض، ويعني في المحصلة الانسلاخ من الإسلام، لتصبح الجماعة فرقة من فرق الباطل، يوجهها العدو كيف يشاء، ويحدد لها المنهج والمسار، ثم يمن عليها بفتات من الدنيا؛ لتذهب آخرتها بدنيا غيرها.

يرد عروضهم التافهة، وينتصر للمبدأ، يتمسك بالثوابت، ثوابت الدين والأرض والمقدسات والحرية، لا مساومة عليها أبداً، وإن تبع ذلك تضييق وتعذيب ومطاردة، فدور القيادة أن تؤصل لهذه الثوابت، وأن تغرسها في النفوس، أما إذا ناورت في الثوابت بغية مهادنة الطاغوت، أو اتقاء شره، أو طمعا في نيل مغنم خاص أو عام، فذلك

---

[1] انظر السيرة النبوية لابن اسحاق (1/ 178).

يعني تمييع الثوابت، والتنازل شيئا فشيئاً، كلما جاءت أمةٌ منهم تنازلت عن شيء من ثوابتها حتى تضيع بالكلية فلا يبقى منها شيئ.

لقد امتن الله على نبيه أن عصمه من الميل إلى أولئك، ولو كان شيئا يسيرا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء:74)، فلا ينبغي لأصحاب الدعوات أن يميلوا أو يركنوا إلى دعاة الضلال، حتى لو كان بحسن نية؛ لأن ذلك يعني ضياع الهوية الإسلامية، وبالتالي ضياع الأمة وتخبطها في الدنيا، فضلا عن ضياع حظوظ الآخرة.

و﴿وَلَوْلَا﴾: أداة شرط تفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط، كأن تقول: لولا نزول الغيث لأجدبت الأرض، أو: لولا القرآن والسنة لضلت الأمة.

فالأرض لن تجدب؛ بسبب المطر، والأمة لن تضل؛ لوجود القرآن الكريم والسنة النبوية، وكذلك فالنبي لن يركن إليهم أبدا؛ لأن الله سبحانه وتعالى أيده بالعصمة.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله، إن هذه الآية تحتاط لرسول الله عدة احتياطات، فلم تقُلْ: لولا تثبيتنا لك لركنت إليهم، بل لقاربت أن تركن فمنعت مجرد المقاربة، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير مُتصوّر من رسول الله ﷺ، ومع ذلك أكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾، أي: ركوناً قليلاً، مما يدل على أن طبيعته حتى دون الوحي من الله طبيعة سليمة بفطرتها، فلو تصوَّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أن

يركن إليهم شيئا قليلا، وقلنا: إن المقارنة تعني مشروعَ فِعْل، لكنه لم يحدث، مما يدل على أن لرسول الله ذاتية مستقلة[1].

إذن لم يركن رسول الله إليهم، ولا ينبغي له ذلك، فقد أدركته عصمة الله، لكنه تنبيه لحاملي لواء الدعوة من بعده، ألا يحيدوا عن المنهاج، وألا يميلوا كل الميل ولا بعضا منه لمن ضلوا الطريق، واقرأ معي الآية التالية، التي تخلع نياط القلب، قال تعالى: ﴿**إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ (الإسراء:75)، وإذا كان خوف رسول الله من أمر لم يقدم عليه، يقرب من خوف المخالفين، فإن الدعاة هم أجدر أن يخافوا من موافقة أعداء الملة.

ثالثا: انتصار المعية:

أجمع المشركون كيدهم على قتل رسول الله ﷺ، فنصره الله تعالى بأن أبطل كيدهم، وبدد مؤامرتِهم، فأيد الله نبيه بنصر مؤزر، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (التوبة:40).

كان نصرا عظيما لقيادة الدعوة، نصرا لشخصين اثنين في مواجهة دولة كاملة، اثنين مُسالِمَينِ لا يحملان السلاح، أمام جيش عالي التدريب، رجلين كبيرين في العمر، مقابل شباب أشداء، اثنين وحدهما

---

[1] تفسير الشعراوي (ص:5277).

يفلتان من مخابرات قريش وجيشها، بل ويهزآن بخيرة وحداتها القتالية، فبعد أن نثر النبي ﷺ على رؤوسهم التراب، خرج مع صاحبه الصِّدِّيق، تحرسهما المعية الإلهية، والمعية هنا كما يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير هي: معية الإعانة والعناية.

إنه انتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، التخطيط المشروع على المكر السيئ، ينتصر وعد الله لعباده على خديعة الشيطان لجنوده.

إن الحركة الإسلامية إذا قامت لأمر الله تعالى، بنية خالصة لله وحده، وأخذت بالأسباب رغم قلة العدد والعدة، كان حقا على الله نصرها، وذلك من عدة وجوه، **أولا:** أن يُنجيها من الكيد الدائم، فكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، وكلما اجتمعوا لاستئصال الدعوة فرقهم الله، **وثانيا:** يُنزل على جنودها السكينة، التي يستمر معها جهد الداعية، فلا يتوقف رغم شدة المحن، وكثرة العقبات، وتطاول أهل البغي، **وثالثا:** عندما تبلغ الشدة أقسى درجاتها، فيجتمع الباطل لاجتثاث الدعوة، يكون المدد الإلهي تثبيتا للمؤمنين، وحفظا لهم من عدوهم بأمر الله تعالى، وتلك الجنود التي لا نراها، إما أن تكون جنودا سماوية، أي الملائكة[1]، أو قلبية، وهي: اليقين والثقة بالله والتوكل[2]، وأرى أن تَنزُّلَ الجنود السماوية مقدمة لتحريك الجنود القلبية، **ورابعا:** يكون لهم شرف المساهمة في إعلاء كلمة الله سبحانه، وخفض كلمة الشرك وأهله.

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (6/ 374).

[2] حقائق التفسير للسلمي (1/ 275).

وكم رأينا هذه المعية الإلهية تحوط المجاهدين، فعميت عنهم أبصار عدوهم، فكانوا يتنقلون بين مدينة وأخرى، ويمرون من بين اليهود، فينظرون إليهم نظر الأعمى، ثم يسمح لهم بالمرور، فيخترقون حواجزهم بأمر الله لا بأمر جنود الظلام، وهم لا يعلمون أن من يمر أمام كاميراتهم ورشاشاتهم، ومن بين أيديهم، هو من يبحثون عنه، ويرصدون الجوائز لتقديم معلومة واحدة عنه، تماما كما حدث مع مشركي مكة، أليس هذا نصرا يستحق الاعتراف لله بالفضل؟

وكم عقدوا من مؤتمرات للحرب على الإسلام، ربما على كثرتها لا تطيق عدها، ولعل ما أخفي كان أعظم مما أعلن، والهدف الحقيقي هو رأس الإسلام، قتل الدعوة، وإطفاء جذوة الجهاد، ولكن لماذا لم يفلحوا رغم اجتماعهم على هدف واحد، وإمكاناتهم المادية الهائلة، وإصرارهم العجيب؟

والسؤال المهم: من نصره الله في حال الضعف والمطاردة، هل يخذله عندما يشتد عوده ويكثر أنصاره؟!

إن النصر لمحمد ﷺ يقتضي النصر لدعوته، فمن حمل هذه الدعوة بحقها نُصر، سواء كان في مرحلة الخوف والاستضعاف، أم انتقل إلى مرحلة الأمن وتحقيق الاستخلاف، ولقد نصر الله نبيَّه في هذا الموقف العصيب، عندما كان هو وصاحبه الصديق فقط، ونصره عندما أيده بالمؤمنين في بدر، والأحزاب، وتبوك، وكذلك هو النصر للفئة المؤمنة المستقيمة على المنهج، تُنصر في مرحلة قلة العدد

والعدة بالمعية، وتُنصر في مرحلة وفرة العدد والعدة بمغالبة العدو، على ألا يَغُرَّنَّها ذلك، فكل من عند الله.

إن حفظ الله سبحانه وتعالى للدعوة في بداياتها، يعني أنه سبحانه أراد لها أن تستمر؛ لتبدد ظلام الباطل، ولنكن على يقين أن النصر للحركة الإسلامية، ليس نصرا لشخوصها، وإنما نصر لدين الله، الذي سيظهر على الأديان كافة، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ (الفتح:28).

رابعا: النصر الحضاري:

تظهر أخلاق الأمم على حقيقتها في حالين، هما: الحرب والنصر العسكري، ويمكن أن أطلق على هاتين الحالتين ميزان الحضارة؛ إذ ليس بالضرورة أن تكون الأخلاق الحميدة صادقة في حال السلم، ومن باب أولى الهزيمة العسكرية، وهذه الأخلاق التي نراها في ميزان الحضارة، هي انعكاس لمفهوم الحضارة عند المجتمع، فهي إما حضارة أخلاقية أو مادية، وهاتان هما كفتا الميزان.

وإذا نصبنا ميزان الحضارة؛ لتحديد صاحب القدر الأعلى من الحضارة الأخلاقية، وجدنا _وعلى مدار التاريخ_ أن كفة الحضارة الأخلاقية، هي الكفة الراجحة لصالح المسلمين، وكفة الحضارة المادية هي الراجحة لصالح أعداءهم.

قلت إن ميزان الحضارة هي الأخلاق، التي نراها في حالتي الحرب والتفوق العسكري، ولنبرهن على ما قلنا من وقائع التاريخ.

الحالة الأولى: الحرب:

لم يرسل رسول الله ﷺ جيشا أو سرية إلا بعد أن يوصيها، ولم تكن الوصية خطة عسكرية مادية مجردة من القيم الحضارية؛ بل على العكس من ذلك، فليس الهمُّ الأول والأخير هو تحقيقَ نصرٍ عسكري على الخصم بأي وسيلة كانت، ولو كان ذلك على حساب القيم والأخلاق. **عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم..."[1].**

وصية طويلة أقتصر على هذا الجزء منها، فأي كلمة يمكن أن تُعاب، وأي خلق يضاهي ما فيها، أي خلق هذا الذي يحدد معالم الطريق للمحارب، ويمنعه من تجاوز الحق والعدل لأي سبب كان، طمعا في مغنم، أو انتقاماً شخصياً، أو جنونَ عظمة.

الحالة الثانية: التفوق العسكري:

لما تحقق لرسول الله ﷺ التفوق العسكري، دخل مكة في منتهى التواضع والتذلل لله تعالى، ومن قرأ جيدا هذا المشهد الحضاري، كان

---

[1] صحيح مسلم (5/ 139).

بإمكانه أن يحدد المشهد التالي، وهو كيفية التعامل مع قريش، أولئك الذين استخدموا كل وسيلة في حربهم ضد النبي ﷺ، فتجاوزا حدود الشرف والأخلاق، لكنه لما ملك رقابهم أسر قلوبهم، إذ إنه لم يقابل السيئة بالسيئة، بل عفا وأصلح، فتحولت قلوب كثيرين منهم من الغلظة إلى الرحمة، ومن الكره إلى الحب، ومن الشرك إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ (فصلت:34).

من هذين المشهدين نستطيع أن نحدد ركيزتين أساسيتين، يمكن من خلالهما أن نحكم على أمة ما، بالانتصار أو السقوط الحضاري.

وهاتان الركيزتان هما: التواضع، والرحمة، وضدهما الكبر والظلم، ولا عجب أن من تواضع رحم وعدل بين الناس، ومن استكبر ظلم وطغى، ولقد كان منهم الاستكبار، ثم الظلم لأنفسهم ولعباد الله، أما النبي ومن آمن معه، فتواضعوا لله تعالى، فكانت النتيجة مرحمة عامة لا مثيل لها في التاريخ الإنساني.

وإذا تأملنا الآيتين الرابعة عشرة، والخامسة عشرة من سورة آل عمران، وجدنا تصويرا دقيقا للمنهجين، وهما: الحضارة المادية، والحضارة الأخلاقية، قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (آل عمران:14).

أجملت الآية الكريمة مشتهيات الحياة في سبعة أمور، (النساءِ، والبنين، والذهبِ، والفضةِ، والخيلِ المسومةِ، والأنعامِ، والحرث)، هذه

المشتهيات جمعت كل المتع الجسدية، وهي الشهوات ذاتها قديما وحديثا، أما الخيل فلازالت مرغوبة إلى اليوم، رغم التقدم الهائل في المواصلات، ولا أرى مانعا من أن تشمل وسائل النقل كافة، من السيارات والطائرات والقوارب، وغيرها.

هذه المشتهيات السبع يمكن أن نوجزها في أربعة أقسام، هي: الإنسان، والمعادن، والبهائم، والنبات[1]. أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي، وأما المعادن فيطلبها للآلات والأواني، كالنحاس والرصاص، وللنقد، كالذهب والفضة، وغيرها من المقاصد، وأما البهائم: فيطلب منها لحومها للمأكل، وظهورها للمركب والزينة. وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي، أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويُسَخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان؛ ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام، وهو الذي يعبَّر عنه بالجاه؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين[2].

وقد جمعها الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ وهذا من الإنس، ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن، وفيه تنبيه على غيرها من

---

[1] قسم الشيخ أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين"، الزينة الموجودة على الأرض إلى ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. ويرى أن الحيوان ينقسم إلى الإنسان والبهائم، غير أني أميل إلى التقسيم الذي ذكرت؛ انطلاقا من تكريم الله للإنسان.

[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 224).

اللآلئ واليواقيت وغيرها ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ﴾ وهي البهائم والحيوانات، وأخيرا: ﴿وَالْحَرْثِ﴾ وهو النبات والزرع[1].

إن الحضارة المادية تقوم على حب هذه الشهوات، وهي في حقيقتها ليست محرمة، ولا كذلك طلبها بعقلانية، ولكن المشكلة إذا تحولت لغاية في حد ذاتها، وبررت لنفسك كل وسيلة في طلبها، فإنها عندئذ تحرفك عن الصراط المستقيم.

يقول المفكر عبد الحميد صديقي معلقا على هذه الآية، تسيطر على أغلب البشر غرائز التملك، وعندما تسيطر هذه الغرائز على شخص ما، يتجه نشاطه كله وجهة واحدة، هي الحصول على وسائل الراحة المادية، فلا يستطيع عقله أن يفكر في شيء مما وراء ذلك[2].

أما الشيخ الغزالي، فيرى أن لها مع العبد علاقتين:

العلاقة الأولى مع القلب: وهو حبه لها وحظه منها، وانصراف همّه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد، أو المحب المستهتر بالدنيا، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا، كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر.

العلاقة الثانية مع البدن: وهو اشتغاله بإصلاح هذه الشهوات؛ لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف[3].

---

[1] المرجع السابق (3/ 224).

[2] تفسير التاريخ (ص:164)

[3] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 224).

ويرى صاحب إحياء علوم الدين، أن الناس قد انقسمت بفعل هذه الشهوات، إلى ما يبلغ نَيِّفاً وسبعين فرقة، والناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، وهو ألا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية، أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة[1].

هذه الأقسام الأربعة للحضارة المادية تعرفها بها، يمكن أن نجملها في المتعة، هي حضارة المتعة الجسدية، أما الحضارة الأخلاقية فلها مظهر واحد، طريق واحد تدلك عليها، وهي التقوى، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (آل عمران:15).

التقوى هي المتعة الروحية، التي تتميز بها هذه الحضارة؛ إن المنتمين للحضارة الأخلاقية، يتمتعون بمتعة روحية هائلة، رغم قلة ما لديهم من متع مادية، وربما قدر عليها أحدهم، بما أوتي من صحة بدنية، أو قدرة مالية، لكنه أخذ من تلك المتع ما يكفي جسده، ولا يفسد قلبه، ما يصلح به معاشه، ولا يضيع به دينه، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:77)، ولذلك فإن المتعة الحقيقية الباقية، هي متعة التقوى.

لقد ترك أولئك متع الجسد المادية من أجل الله تعالى، **فعوضهم أولا:** متعة روحية في الدنيا، تبصرهم بالحق، فيتبعونه في أنفسهم،

---

[1] المرجع السابق (3/ 230).

وبالعدل فيقيمونه بين الناس، **وثانيا:** الجنة، وهي الجزاء الأعظم، ولك أن تتخيل فضل الله تعالى؛ إذ يبشر أهلها بمتعة مادية أخروية، ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾، وهي ليست في جوهرها ولا شكلها كالمتعة المادية الدنيوية، فالأخروية ملائكية خالدة، والدنيوية حيوانية زائلة، **وثالثا:** الرضوان الإلهي، فهو المكرمة العظيمة التي تفوق ذلك كله.

وبعد هذا فليس غريبا من حضارة المتعة، أن تطمس الحق، وتظلم الناس، فالغاية تبرر الوسيلة؛ لإشباع سيل جارف من الشهوات، وليس غريبا أيضا من حضارة الروح، أن تقيم الحق والعدل بين الناس في كل الأحوال، فالحرب كالسلم، والنصر العسكري كالهزيمة، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** (المائدة:8).

وما أعظم أخلاق المجاهدين من أبناء الحركة الإسلامية، حينما كانوا يكفون سلاحهم؛ لئلا يقتل أطفال اليهود، ويكتفون بمواجهة الجنود، فيعجب العدو قبل الصديق، ثم لا يملك من رأى وسمع، إلا أن يعظم قدرهم، ويحترم شجاعتهم، شجاعة كبح جماح الرغبة في الانتقام، وهي أعلى مرتبة من شجاعة الوصول إلى العدو المحصن.

خامسا: النصر السياسي:

صدق رسول الله ﷺ حينما قال بعد أن أجلى الأحزاب عن المدينة "**الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم**"[1]؛ إذ كانت هذه الغزوة

---

[1] صحيح البخاري (5/ 110).

محطة فارقة في طبيعة العلاقة بين الطرفين، وكانت مفصلية أيضا في خطاب قريش السياسي، كان خطابها قبل هذه الغزوة، حتى بعد الهزيمة في بدر، خطابا استئصاليا، بمعنى أنهم لم يكونوا يؤمنون بحق المسلمين في الوجود، ويعتبرونهم فئة خارجة عن القانون الجاهلي، ولا بد أن يتم ردها بالقوة، ولذلك لم تعقد مكة مع المدينة أي اتفاق سياسي، فلم يكن الحوار، إلا للضرورات التي تفرضها الحرب، مثل فداء الأسرى.

هذا الخطاب السياسي المتعنت قد تغيَّر بالكلية، فقبل العام الخامسِ للهجرة، كان من يصغي للغة العقل والمنطق من قريش، فيعرض على قومه الحوار مع المسلمين، يتهم في أحسن الأحوال بالجبن، وفي أشدها بالردة عن الجاهلية، حتى جاءت غزوة الأحزاب فقلبت المعايير، واستسلمت مكة للحقيقة، وهي أنها لن تفلح في استئصال القوم، لقد جربت معهم الحيل كافة، واستخدمت كل أشكال الحروب؛ التعذيب، والتجويع، والدعاية، والمطاردة، والاعتقال، والإخراج، والقتل.

شهد العام السادس للهجرة، تغيرا جوهريا في البرنامج السياسي لقريش، فقد أذعنت للحوار مع المسلمين، الرجل الذي أخرجته ومن معه، ولم تقبل بأن تسمع منه في لقاء دعوي، تلتقي به مرغمة؛ لعقد اتفاق سياسي، فيوقع صلح الحديبية، وتشترط قريش أن يدخل مكة في العام المقبل، وما المشكلة في ذلك؟ فلم يتراجع عن الثوابت الشرعية والوطنية، ودخل مكة في العام التالي عزيزا كريما رغم أنوفهم.

يوقِّعون اتفاقا سياسيا مع رسول الله، وكانوا يحاولون فَضَّ الناس من حوله، فيطلبون من القبائل ألا تسمع له، اتفاق سياسي ومن قبل كان خطابهم في كل محفل أن المسلمين مجموعة متمردة، تتم معالجة موضوعها داخليا، والمعالجة بطبيعة الحال أمنية دائما، فكيف قابلت قريش القبائل الأخرى بعد صلح الحديبية؟

إن الخطاب التحريضي ضد الإسلاميين، والتهم الكثيرة التي تلصق بهم، لن تغير من الحقيقة شيئا، فلن يصبح بها الحق باطلا، والباطل حقا، وأولئك الذين كانوا رأسَ حربة في محاربة الحركة الإسلامية، يوما ما سيتسولون الاتفاق معها بحق، وسيكون اتفاقا لصالحها وليس لصالحهم، ومن موقع قوة لا من ضعف، فمن رفض الدعوة، خطب وُدَّ القوة، ولذلك سيكون هذا الاتفاق بوابةً لتحرير فلسطين، لكن هذا مشروط بالتمسك بالثوابت الشرعية والوطنية.

في الحقيقة لم تكن نتائج هذه المحطة نصرا سياسيا فقط، بل كانت نصراً إيمانياً أيضاً، فلما بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قتل، دعا الصحابةَ إلى مبايعته على قتال المشركين، فبايعه أكثر من ألف وأربعمائة على ألَّا يَفِرُّوا[1]، فاستحقوا بذلك رضوان الله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ (الفتح:18).

أما ما قد يتصور من أنها تنازلات، فلم تكن كذلك، فهي مرونة اقتضتها الضرورة، وهذا من فقه المصالح، فلم يتنازل رسول الله عن

---

[1] صحيح مسلم (6/ 25).

ثابت من الثوابت الشرعية والوطنية، ونحن نعلم أنه رفض العروض التي قدَّمتها قريش، ومنها المُلك، مقابل أن يترك هذا الأمر.

قبل النبي ﷺ أن تفتتح الصحيفة بكتابة (باسمك اللهم)، ورضي أن يكتب (محمد بن عبد الله)، دون كتابة رسول الله، والبسملة وباسمك اللهم معناهما واحد، ومحمد بن عبد الله هو أيضاً رسول الله، وليس في ترك وصف الله سبحانه بالرحمن الرحيم في هذا الموضع ما ينفي عنه هاتين الصفتين، ولا في ترك وصف النبي ﷺ بالرسالة ما ينفيها، ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما المفسدة لو طلبوا أن يكتب مالا يحلُّ من تعظيم آلهتهم[1].

وأما شرطهم رد من جاء منهم مسلما، وعدم رد من ذهب إليهم مرتدا، فلما سئل رسول الله ﷺ عن كتابته، قال: "نعم. إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا"[2].

ومن يمكن أن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان؟!، وإن فَعَلَ أحدُهم فلا حاجة لنا به فعلا، كما بيَّن رسول الله ﷺ، لكن الجزء الأول من هذا الشرط حصل بالفعل، فأثناء كتابة بنود الصلح، بين النبي ﷺ، وسهيل بن عمرو، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد قد لَجَّتِ القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا؛ فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ يا أبا جندل اصبر واحتسب،

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (2/ 356).

[2] صحيح مسلم (5/ 174).

فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم. فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب، قال ويدني قائم السيف منه[1].

لقد أوفى النبي ﷺ بوعده مع قريش، أما الفرج والمخرج، الذين بشر بهما أبا جندل، فكان في وصية عمر رضي الله عنه، التقط أبو جندل تلك التلميحات، وظلت عالقة في ذهنه، حتى كان من قادة سرية المهمات الخاصة، التي قادت حرب العصابات ضد قريش.

كان ذلك بعد أن أسلم أبو بصير، عتبة بن أسيد[2]، وذهب إلى رسول الله ﷺ، فأرسلت قريش رجلين في طلبه، فدفعه النبي ﷺ إليهما، فخرجا حتى بلغا به ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيدا يا فلان، فاستله الآخر وقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به، ثم جربت، فقال له أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فقتله، وفَّر الآخر حتى أتى المدينة، فقال: قُتل –والله صاحبي–، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله قد والله وَفَّت ذمتك، وقد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر[3]،

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (2/ 318).

[2] الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر (2/ 231).

[3] الاستيعاب لابن عبد البر (4/ 1613).

وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون، بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ (الفتح:24)، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿**الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾. وكانت حميتهم أنهم لم يقروا بنبوته، ورفضوا أن يكتبوا "بسم الله الرحمن الرحيم"، وحالوا بينهم وبين البيت[1].

"ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد"، كانت عبارة إعجاب من النبي ﷺ، ببسالة أبي بصير، ومبادرته الإيجابية لنصرة الحق، إشارة واضحة للمستضعفين في مكة باللحاق به؛ لتشكيل قوة عسكرية، ليست تابعة للمدينة المنورة، بحيث لا تتسبب في حرجٍ سياسي لها، وقد كان مأمولا منها أن تحقق هدفين: **الأول وهو الأهم:** التخلص من اضطهاد قريش؛ لأداء العبادات بحرية، والنجاة من الفتنة في الدين، **والثاني:** الضغط على قريش بالقوة؛ لانتزاع مواقف سياسية حين الحاجة.

سادسا: النصر العسكري:

لن تُنصر عسكريا إلا إذا انتصرت لعقيدتك، فليست الغلبة لقوة البدن، ولا لكثرة العدة والعدد، وإنما لقوة العقيدة، وكثرة العبادة، فبهذا

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 335-336).

يستجلب المدد، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ (محمد:7)، إنها سنة التدافع بين أهل الإيمان وأهل الكفر، "ولما كان دفع الله الناس بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تسفر عن منتصر ومنهزم، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج:40)، فإن كان التدافع بين حق وباطل، فلا بد أن ينتهي بنصرة الحق، وغالبا لا تطول هذه المعركة؛ لأن الحق دائما في رعاية الله، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل، فليس أحدهما أولى بنصرة الله من الآخر، أما المعركة بين حق وحق، فلا وجود لها؛ لأن الحق واحد في الوجود، فلا يمكن أن يحدث تصادم أبدا بين أهل الحق"[1].

لقد حقق الصحابة الشرط الذي ورد في الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾، ففي زمن الشدة (الفترة المكية)، ضَحُّوا من أجل الإسلام، فلم يخذلوه، وفي زمن الرخاء (الفترة المدنية)، عملوا به فلم يهجروه، لذلك كانت النتيجة منطقية في أول معركة فاصلة بين الإيمان والشرك، مع أن الثلة المؤمنة لم تكن عند خروجها متهيئة للقتال، فقد خرجت لغنيمة يسيرة، لكنها أثبتت صدق انتمائها، وحسن ولائها، عندما سمعت وأطاعت لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وعلى الفور غيَّرت آلياتِ عملها، تبعا لأوامر القيادة، ووفقا للتكتيك الجديد.

كان هذا أولَ مشاهد المعركة، وهو يؤكد أنه لا نصرَ بغير نية خالصة لله تعالى، وأهداف سامية لخير البشر، ومع أن النية الأولى خالصة لله، لكنها كانت ستفضي إلى مغنم دنيوي فقط، فأراد الله

---

[1] تفسير الشعراوي (ص:6048-6049).

سبحانه وتعالى أن يربط قلوبهم بما هو أسمى وأعظم، فحوَّلها إلى النية الثانية، وهي القتال لإعلاء كلمة الله، فإذا بهم يحوزون أجر الدنيا والآخرة، لكن تلك الاستجابة السريعة، لم تكن لتكون لولا التضحية في الشدة، والعمل بعد الأمن.

وعليه؛ فإن على الحركة الإسلامية، وهي تسعى للنصر العسكري على عدوها؛ من أجل تحرير الأرض والمقدسات، عليها أن تتجنب أمرين مهمين في علاقتها بالإسلام، هما: الخذلان والهجران، فهما سلاحان مدمران، يجب أن يستبعدا تماما من أبجديات العمل الإسلامي، ولن يكون ذلك قبل أن يتم فهمهما فهماً كاملاً من القيادة والجنود.

إن الخذلان يعني التخلف عن نصرة الإسلام؛ خوفا من بطش طاغية، والهجران يعني أن تقصر تطبيق الإسلام على جانب دون آخر، طمعا في عدم فوا منفعة دنيوية.

إنَّ اختلال الصف، وتمزقه بين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، يعد انتكاسة في معركة الضمير، ولا انتصارَ في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير، ففي غزوة أُحُدٍ رغم انفصال المنافقين عن الجيش، بذلك العدد الضخم، وهو ثلث الجيش، لم يحرم المؤمنون النصر، فقد قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ**﴾ (آل عمران:152)، وكانت العقوبة من أجل الفئة التي عصت أوامر القيادة، فمعصية الصف المؤمن والخلل فيه أعظم من معصية المنافقين في الصف، فالمؤمنون أعظم عند الله من أن يعاقبهم لوجود

المنافقين فيهم بغير علمهم، إنما يستحقون العقوبة عندما يعصي بعضهم أمر قيادته[1].

لقد كان مستغربا قبل غزوة أُحُدٍ أن تكون هذه الفئة التي تريد الدنيا، موجودة في عهد النبوة، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما شعرنا أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد"[2]، ثم أصبح ذلك أمراً مفهوماً ومستوعباً عند الصحابة، ثم إننا نجد هذا في واقع الحركة الإسلامية، فكثير من أبناء الحركة الإسلامية يستهجنون أن يكون بعض عناصرها ممن يطلبون الدنيا، نَعَم ذلك غريب ومستهجن، ذلك أن معانيَ الطمع، والجشع، والانتهازية، والتزلف، غريبة تماما عن القيم الحضارية، التي يربى عليها الجيل القرآني.

إنَّ هذا واقع موجود لا ننفيه، فهذه نفوس بشرية موجودة في كل مرحلة ودولة، غير أن الخلل أن تُقلب المعادلة، فَيُقَّدم من يريد الدنيا ويُسمع له، ويُؤخر من يريد الآخرة فلا يُؤبه له، والواجب أن تتولى الحركة الإسلامية مهمة تنقية الصف وضبطه، فإذا تأخرت وتغافلت حتى كثر أهل الدنيا، واستعظم شأنهم؛ ابتلاها الله بما ينقِّي صفَّها ويطهره، قال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء:35)، وقال سبحانه: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ (آل عمران:179).

---

[1] المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان (ص:236-238).

[2] البحر المحيط لأبي حيان (3/ 417).

وقد رأينا من سقط في حالي المحنة والمنحة، وأعظم السقوط أن يسقط أهل الدنيا من عين الله تعالى، ثم يُسقطهم من عيون الناس، بعد أن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

إن النصر العسكري منحة ربانية لا يستحقها إلا من خلصت نيته، وطهرت سريرته، وعلت همته، فكان عزيزا بإيمانه، وقد تحوزه الجماعة المؤمنة بقتال وبغير قتال، ففي غزوة بدر كان لابد أن يتم هذا اللقاء بين الفريقين؛ لترى قريش شدة المؤمنين وبأسهم، فتحطَّمَ كبرياؤها، وتكسرَ هيبتها في نفوس العرب، ويعلوَ شأن الدولة الجديدة.

وقد يتحقق النصر بغير قتال، بمجرد أن تغضب الفئة المؤمنة لله، وتتحرك لإعلاء كلمة الله، فانظر على سبيل المثال إلى ثلاث كيانات يهودية، كان كل واحد منها عبارة عن مستعمرة منيعة، ولديها كلُّ أشكال القوة: البشرية، والاقتصادية، والعسكرية، فكان مستبعدا أن يخرجوا من مستعمراتهم بغير قتال عنيف يزهق الأرواح ويدمر الممتلكات، لكن الذي حدث غير ذلك، فكانت أحوالهم كما يلي:

هزيمة اليهود الأولى.. بنو قينقاع

طبيعة الخيانة:

روى أبو داود عن بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما أصاب رسولُ الله ﷺ قريشا يوم بدر وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: "يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا، قالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس،

وأنك لم تَلقَ مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ (آل عمران:12-13)[1].

لكن رسول الله تجاوز عن قلة أدبهم، حتى كان منهم ما لا يُسكت عليه، ولا يتجاوز عنه، وذلك أن امرأة قدمت بمتاع لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ يهودي في السوق، فطلب اليهود منها كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتُها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستغاث أهل المسلم بالمسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[2].

الموقف النبوي:

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم حصارا شديدا، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة 2 هـ، ودام الحصار خمسَ عشرةَ ليلةً، إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

---

[1] سنن أبي داود (3/ 154).

[2] السيرة النبوية لابن هشام (3/ 314).

فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا[1].

فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد أَحسِن في مواليَّ، وكانوا حلفاءَ الخزرج، فأبطأ عنه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في مواليَّ، فأعرض عنه رسول الله، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فغضب رسول الله، ثم قال. أرسلني: فقال: لا واللهِ لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ، أربع مائة حاسر، وثلاثمائة دراع، منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله أمرؤٌ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك[2].

نتائج الغزوة:

أُخرج بنو قينقاع من المدينة، وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، فأخذ منها ثلاث قِسِيٍّ ودرعين، وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمَّس غنائمهم، وكان الذي تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة[3].

فأين قوة هؤلاء التي اغتروا بها؟!، وأين مقالتهم "يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال؛ إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تَلقَ مثلنا"؟!

لقد حطِّم ذلك الغرور، وقضي على العنجهية اليهودية في خمسَ عشرةَ ليلة فقط، قضي على أول وجود يهودي، ولم يَلقَ المسلمون قتالا، إنه الوضع الطبيعي لأهل الباطل، سيَّما اليهود، الذين يحرصون

---

[1] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:201).

[2] السيرة النبوية لابن إسحاق (ص:109).

[3] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:201).

على حياة أيّ حياة، لكنَّ المؤمنين ينفرون خفافا وثقالا انتقاماً لِعِرضِ امرأةٍ مؤمنة، ولمقتل من أغاثها، وكان صريخاً لها.

هزيمة اليهود الثانية.. بنو النضير

طبيعة الخيانة:

كان سببها أن رسول الله ﷺ، خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين، قتلهما عمرو بن أمية، بعد مجزرة بئر معونة، فظنهما من بني عامر، وكانا من قوم معاهدين، فلما أتاهم قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض، فاتفقوا على قتل النبي ﷺ، فانتدب لذلك عمرو بن جحَّاش بن كعب، فصعد لِيُلقِيَ عليه صخرة، وكان النبيُّ في نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ، فأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء، بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة[1].

الموقف النبوي:

حاصرهم رسول الله ﷺ ست ليال، فتحصَّنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفَّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[2] ففعل، فاحتملوا من

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 145).

[2] الحلقة: السلاح.

أموالهم ما استقلَّت به الإبل، وكان خروجهم إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام[1].

وقد حوصروا ست ليال فقط، فخارت قواهم، وهُزموا أمام القوة الروحية، التي تحرك القوة العسكرية، لقد كانوا يملكون السلاح، فلماذا لم يقاتلوا؟!، ولماذا لم ينتصروا وهم في حصون منيعة؟!

أما عن السؤال الأول، فالحقيقة أنه لم يحدث قتال كبير يذكر من اليهود، إلا ما كان من عَزوَكِ اليهودي، وفرقة الرماة التي يرأسها، فقد ضُربت لرسول الله ﷺ قبة من أَدَمٍ، ولما جلس فيها النبي، رماها عزوك بالنبل، وكان شجاعاً رامياً، فبلغ نبله القبة، فَحُوِّلت حيثُ لا يصلها النّبل، وتحركت قوة التدخل السريع الإسلامية بقيادة عليٍّ رضي الله عنه، فقتل عزوك، وفرت بقية الفرقة، فبعث معه النبي ﷺ أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة من الفدائيين المسلمين، فأدركوا اليهود الذين فروا من عليٍّ رضي الله عنه فقتلوهم[2].

ومع أن هذه الفرقة أبدت شيئاً من المقاومة، فرمت مقرَّ القيادة ببعض النبل، لكنها لم تكن معركةً شرسةً، أو مقاومةً عنيدةً، بل تمَّ التعامل معها على الفور، والانتقام لمقام القيادة النبوية الشريف، أما لماذا لم يكتب لهم النصر، وهم أهل السلاح والحصون؟!؛ فكيف يثبت السلاح بأيدٍ مرتعشة، وأقدامٍ خائرة؟!، وهل تمنح الحصون الطمأنينة لقلوب مضطربة؟!!.

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (4/ 144-145).

[2] إمتاع الأسماع للمقريزي (1/ 189-190).

إن ثبات الأقدام في أرض المعركة، والقبض على السلاح بقوة، منحة يرزقها الله لعباد له رأى منهم خيراً، قال تعالى: ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ** ﴾ (الأنفال:11)، وطمأنينة القلوب لن يحوزها إلا مؤمن، يرضى بأمر الله وأمر رسوله، ولو كان في ظاهره الشدةُ والعَنَتُ، فقد قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد:28).

نتائج الغزوة:

قبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة[1]، وثلاثمائة وأربعين سيفاً[2].

هزيمة اليهود الثالثة.. بنو قريظة

طبيعة الخيانة:

كانت عقوبتهم أشدَّ من سابقيهم؛ لشدة جرمهم، فقد أعلنوا الحرب، وقطعوا الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وجاهروا بالسبِّ والعداوة لرسول الله ﷺ والصحابة، وذلك في أحرج موقف وأشده على المؤمنين، وهو يوم الأحزاب، ولم يكن يحول بين المؤمنين وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيشٌ عَرَمرَمٌ لم

---

[1] البيضة من أدوات الحرب. إمتاع الأسماع للمقريزي (1/ 191).

[2] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:270).

يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما قال الله تعالى: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴾ (الأحزاب: 10-11)[1].

الموقف النبوي:

بعد انتهاء غزوة الأحزاب، تحرك إليهم رسول الله، بأمر من الله سبحانه وتعالى؛ إذ جاءه جبريل، فطلب منه السير إليهم، فحاصرهم رسول الله خمسة وعشرين ليلة، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وهو حكم الله فيهم، بأن يُقتل الرجال، وتُسبى الذرية، وتُقسم الأموال، وكان الرجال ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فَضُرِبت أعناقهم. وقتل في الحصار رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سويد، طَرَحَت عليه الرحى امرأة من قريظة، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة[2].

نتائج الغزوة:

غنم المسلمون ألفاً وخمسمائة سيفٍ، وثلاثمائة درعٍ، وأَلْفَي رمح، وألف وخمسمائة ترسٍ وجُحفة، وأثاثاً، وآنية كثيرة، والعديد من الجمال النواضح والماشية، وخمراً وجرار سكر، فأهريق الخمر ولم يخمس[3].

---

[1] المرجع السابق (ص:276-277).

[2] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:270).

[3] إمتاع الأسماع للمقريزي (1/ 248).

أين ذهبت مناعة الحصون؟!، ولماذا لم يُستخدم ذلك المخزون الضخم من السلاح؟!

لقد كان اليهود في حالةٍ أفضلَ بكثيرٍ من المسلمين، فقد خرج المسلمون منهكين من غزوة الأحزاب، بعد حصار محكم دام شهراً، أو نحو شهر[1]، بينما كانوا في النعيم والراحة، والمخازن مكدسة بأصناف الطعام والشراب والسلاح، فما هو العامل المهم، الذي قلب هذه الموازين، ورجَّح كِفة الجيش الإسلامي على جيش المرتزقة؟

كان باستطاعتهم أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون؛ ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس، والجوع الشديد وهم في العراء، إلا أن هذه المعركة كانت حربَ أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، فانهارت معنوياتهم[2].

ثلاث معارك يهزم فيها اليهود نفسيا وعسكريا، بعد أن هزموا أخلاقيا بنقض عهودهم، فلا يجد المسلمون كيدا، إلا ما كان من فرقة الرماة في بني النضير، وتم التعامل معها على الفور، ومع أنهم سبقوا كل معركة بتهديد ووعيد للمسلمين؛ بل تطاولوا وقالوا لرسول الله ﷺ قولا في غاية الفظاظة، فقالوا: "يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش، كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا، لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تَلقَ مثلنا"، وقالوا لنا مثلها في العدوان علينا ثلاث مرات في أقل من ست سنين، لكن الله ردهم دون بلوغ الغاية، فلم تُغنِ عنهم قوتهم المزعومة شيئا.

---

[1] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:278).

[2] المرجع السابق (ص:279).

إنهم يسارعون في امتلاك القوة المادية، فبين فترة وأخرى، يعلن العدو عن صفقات لتزويد الجيش الإسرائيلي بأحدث الطائرات والدبابات والغواصات، وتطوير الصواريخ والأسلحة القتالية، وزيادة كفاءة الجنود وقدرات الضباط، إنهم ينفقون المال والوقت والجهد، من أجل هدف واحد، هو تمكين الباطل، واجتثاث الحق؛ لكن قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾** (الأنفال:36).

ما أعظم هذه الآية!، وما أطيب أثرها على النفس المؤمنة!، فكلما قرأتُها –سيما في زمن اشتداد المحنة، وتكالب أهل الكفر على أهل الإيمان– ازددتُ ثقة بموعود الله لأوليائه، وانتقامه من أعدائه.

وقد اشتملت الآية على خبر، ومستقبل قريب، وبشارتين، ووعيد، فأما الخبر فهو قوله تبارك وتعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾**، وذكر المفسرون أن النفقة المعنية هنا، هي نفقة قيادة الشرك على إطعام الطعام يوم بدر، وقيل هي نفقة أبي سفيان على ألفين من الأحابيش، أستأجرهم لقتال المسلمين في أحد[1].

وهذا الإنفاق متجدد مستمر، فمعركة الحق والباطل لن تتوقف، ولذلك فأئمة الباطل ينفقون أموالهم في عهد الدولة الإسلامية الأول،

---

[1] انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (6/ 217)؛ وروح المعاني للألوسي (7/ 76)؛ وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (3/ 108).

وينفقونها في العهود اللاحقة، وفي زماننا الذي نعيش، ينفقون أموالهم سرا وعلانية، ليلا ونهارا؛ للصد عن سبيل الله.

والمستقبل القريب هو قوله تعالى: ﴿**فَسَيُنْفِقُونَهَا**﴾، فالاستقبال له مرحلتان؛ استقبال قريب، واستقبال بعيد، فإن كان الاستقبال قريباً يقول: "فسينفقونها"، وأما إن كان بعيداً فيقول: "فسوف ينفقونها"[1].

فسينفقونها في الخندق، وبني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، والفرقان، وحجارة السجيل، والعصف المأكول...

والبشارتان هما: ﴿**ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً**﴾ و ﴿**ثُمَّ يُغْلَبُونَ**﴾، وهذا إنذار بأنهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما أنفقوا لأجله؛ لأن المنفق إنما يتحسر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه[2].

ومعنى "ثم" في الموضعين: إما التراخي في الزمان؛ لما بين الإنفاق المذكور، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد، وإما التراخي في الرتبة، لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود[3].

والوعيد في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾، فمن أصرَّ منهم على كفره وجحوده، ومعاندته لدين الله، فمصيره إلى جهنم.

ولو كانوا يملكون عقولا واعية ما فعلوا ذلك، فهم –وإن كانوا يتمتعون بذكاء حاد، ويقودون مركب العلم والتكنولوجيا– لكن عقولهم لم تفقه حقيقة مهمة، أو هي فقهت، لكنها المكابرة والمعاندة، تحقيقا

---

[1] تفسير الشعراوي (ص:3270).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (6/ 139).

[3] فتح القدير للشوكاني (2/ 445).

للمصالح الدنيوية ومحافظة عليها، هذه الحقيقة هي أن دين الله لن يُهزم، فمن يطيق أن يعاند سنن الله؟!، ومن ذا الذي يقدر على حرب الله؟!

يكفي أن أؤكد على ذلك بأن أعود إلى مشهد من مشاهد غدر اليهود يوم الأحزاب، آنذاك قاد حيي بن أخطب حملة التحريض على المؤمنين، فجاء إلى كعب بن أسد، وهو صاحب عَقدِ بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بِحُيَيّ بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فقال له حيي: ويحك يا كعب! افتح لي؛ قال: ويحك يا حيي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أَرَ منه إلا وفاء وصدقا؛ قال ويحك! افتح لي أكلمك؛ قال: ما أنا بفاعل؛ قال: والله إن أغلقتَ دوني إلا عن جشيشتك[1] أن آكل معك منها؛ فَأَحفَظَ الرجل، ففتح له؛ فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة[2]، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذنب نقمى[3] إلى جانب أُحُدٍ، قد

---

[1] الجشيشة: أن تطحن الحنطة طحنا جليلا، ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. صحيح مسلم (2/ 127).

[2] أرض بالمدينة، فيها بئر رومة الذي اشتراه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتصدق به. معجم البلدان للحموي (3/ 104).

[3] موضع من أعراض المدينة قرب أُحُدٍ، كان لآل أبي طالب. معجم البلدان للحموي (5/ 300).

عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام[1] قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه؛ فإني لم أَرَ من محمد إلا صدقا ووفاء، فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب[2] حتى سمح له، على أن أعطاه عهدا من الله وميثاقا: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ[3].

إنهم يعلمون شؤمهم، لكنهم يحاولون من جديد، فلعل ما أنفقوه من أموال، وما بذلوه من جهد، يجدي نفعا هذه المرة، بعضهم يأمل ذلك، فلعل القضاء على المؤمنين، يرفع أسهمه عند قومه، فتكون له السيادة فيهم، وبعضهم على ثقة تامة بفشلهم، لكنها حمية الجاهلية.

لقد حزَّب اليهود الأحزاب، فلم ينتصروا، ثم كانت الكرة عليهم، فَهُزِموا وَأُخرِجوا، وفي معركة العصف المأكول، حزبوا ألوية النخبة في جيشهم، وحزبوا أبواقا من غيرهم فسلقونا بألسنةٍ حدادٍ، ومع ذلك لم

---

[1] الجهام: السحاب لا ماء فيه، ويقال جاءني من هذا الأمر بجهام بما لا خير فيه. المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (1/ 301).

[2] الغارب: مقدم السنام، والذروة: أعلاه. وكان الرجل إذا أراد أن يؤنس البعير الصعب لينقاد له جعل يمرر يده عليه ويمسح غاربه ويفتل وبره حتى يستأنس ويضع فيه الزمام، وقد أصبح مثلا للمخادعة. النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين ابن الأثير (3/ 657، 776).

[3] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 177-178).

ينتصروا، وستكون الكرة عليهم، يُهزمون ويُخرجون، لقد أُخرجوا من المدينة تباعاً، وفي ثلاث حروب مع غزة خرج بعضها طوعا من أرضنا، وسيفعل بعضهم ذلك خلال الحرب الرابعة، أما في التي تليها فسنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون، بفضل الله وعونه؛ تحقيقاً لوعد الآخرة.

الفصل الثالث: أركان النصر

أركان النصر

كما أن لكل عبادة أركانا، فإن للنصر أركانا، لا يتم النصر إلا بها، ومن المعلوم أن لكل عبادةٍ أَثَرَهَا في النفس المؤمنة، فالصلاة تمنح صاحبها السموَّ واليقين، والزكاة تطهر نفسه، وتزكي ماله، والصوم دليله إلى الصبر، وضبط الجوارح، والحج عنوان الاستسلام التام لله، وكذلك فإن لكل ركنٍ من أركان النصر حقيقةً وثمرة.

وقد وجدت أن أركان النصر ستة، خمسة منها رئيسة، وهي كالصلوات الخمس، وقد اخترت لكل واحد منها، نموذجاً من الصحابة[1]، وجعلت له حقيقة، ربطتها بحقيقة الصلاة، وثمرة على الفرد والجماعة.

أما الركن السادس، فهو العمل الصالح[2]، وهو ركن مهم من أركان النصر، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ**

---

[1] ليس معنى هذا مطلقا، أن النموذج من الصحابة، ليس لديه أركان النماذج الأخرى، وإنما أركان النصر الخمسة موجودة عند الصحابة جميعاً رضوان الله عليهم، ولكني وجدت أن كل نموذج منهم تميز واشتهر بأحد هذه الأركان، فجعلتها على هذا النحو؛ ليسهل فهمها، والعمل بها.

[2] مفهوم العمل الصالح يشمل كل خير يقدم للإنسانية، فمنه على سبيل المثال: بناءُ المستشفيات، والمدارس، والجامعات، ودور الرعاية للأيتام وذوي الابتلاءات، وكفالةُ طلاب العلم، وَحَفَظَةِ القرآن الكريم.

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:55)؛ من أجل تلك الأهمية البالغة، فإن هذا الركن يتداخل مع كل ركن من الأركان الخمسة سابقة الذكر؛ ولذلك فلن أفرده بحديث خاص.

الجدول التالي يوضح كل ركن من الأركان الستة، الخمسة الرئيسة، ونموذج كل منها، وحقيقته، وثمرته، والركن المشترك (العمل الصالح)، الذي اشتهر به كل نموذج من الصحابة الكرام.

م	الركن العام	نموذجه	حقيقته	ثمرته	ركن العمل الصالح
1	الإيمان	المهاجرون	الإيمان بأن الله هو الذي فرض الجهاد كما فرض الصلاة.	أن تغدو وليا لله تعالى	الهجرة، وهو اليوم هجرة الذنوب على اختلاف أنواعها.
2	الفهم	الأنصار	كما نفهم أركان الصلاة وآدابها، فيجب أن نفهم طبيعة اليهود، وحقيقة الصراع معهم، وكيف نقاتلهم.	تكون القرارات والتحركات على بينة وبصيرة، ويوضع لك الحبُّ في الأرض.	حماية النبي، وهو في زماننا حماية المنهج.
3	الإعداد	أهل غزوة بدر	عند الصلاة نعد قلوبنا خشوعا وذلة لله سبحانه، وكذلك الإعداد لملاقاة العدو، نعد أنفسنا نفسيا وعلميا وعسكريا.	إرهاب العدو	مجالدة المشركين، رغم عدم الاستعداد للقتال، وعلينا نحن مجالدتهم باللسان والسنان، مع ضرورة الإعداد.
4	الثبات	أهل غزوة الأحزاب	تثبت في صلاتك فلا تكثر الحركة، فتضيع حقيقتها، وتثبت عليها ، فتداوم على أدائها، وكذلك الثبات في معركة التحرير، فلا تغيير ولا تبديل، والثبات على لمنهج ، فلا تتردد ولا تروغ عنه إلى غيره.	تَنَزُّلُ النصر، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم	الإعراض عن المنافقين والمثبطين، وعلينا أيضاً تطبيق هذا الركن.
5	الثقة	أصحاب بيعة الرضوان	إذا أديتَ صلاتك كنتَ واثقا تمام الثقة أنك حزتَ الأجر، وكذلك إذا أديتَ الأركان الأربعة السابقة، علمت أن	رضا الله سبحانه وتعالى، والتحلي بالعزة.	البيعة على الموت، أما بيعتنا فعلى نصرة دين الله حتى الموت.

الركن الأول: الإيمان

إنَّ الإيمان بالفكرة هو الخطوة الأولى نحو تحقيق الأهداف العظيمة، وبلوغ الغايات السامية، فلا بأس أن تطول فترة التربية للجماعة المؤمنة؛ فتكون أقدر على تحمل تبعات طريق صعب وشاق وطويل، طريقٌ تحفُّهُ الشبهات والشهوات، ومع ذلك يحمل ابن هذه الدعوة مِشعَلَ الإيمان في قلبه، فيبقيه على الجادة بإذن ربه، حتى يصل إلى مبتغاه دون أن تنهشه كلاليب الفتن، ينجو منها واحدة بعد أخرى، فتعلو النفس وتسمو بإيمانها، ذلك أن إغراءاتِ الدنيا مجتمعة هي أهون عليه، من أن يلتفت إليها، فضلا عن أن تشغل عليه قلبه، وهو في ذلك ليس ملاكا، إنه بشر، يصيب ويخطئ، يحسن ويسيئ، لكن إذا كان لابد له أن يختار بين دنيا وآخرة، بين نار وجنة، بين أن يكون جنديا للرحمن أو الشيطان، اشتغل محرك الإيمان في قلبه، فرأيته يفر منه إليه، فيلتزم أمره سبحانه، ويقدمه على هوى نفسه، وهو مشفق وَجِلٌ من مقام ربه، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ (النازعات:40-41).

نموذجه:

تعيش النفس في الحياة الدنيا والآخرة، بين نعيمين وذلين:

أ- **فأما النعيمان:** فنعيم الدنيا، وهذا حاصل بعزة الإيمان، عزةٍ تقود صاحبها إلى النصر، وهو إما شهادة في سبيل الله، أو إعلاء كلمة الله، أما نعيم الآخرة فمرضاة الرب عز وجل، ثم جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ب- **وأما الذلان:** فذل الدنيا، وهذه تظلُّ في النفس حسرةً، حتى وإن ملك ذلك الطاغية أموال الدنيا، وصغاراً، وإن حاز أعلى المناصب الدنيوية، وأعظم من ذلك وأدهى ذلُ الآخرة بين يدي الله، وعلى رؤوس الخلائق.

إن النفس المؤمنة إذا ذكرت هذين النعيمين، استهانت بأي نعيم زائل، قد يعرضه لها المرجفون، في سبيل ترك هذه الدعوة، والنزول عن الطريق، ثم إذا تأملت الذلين، فَرَّت منهما فرارها من الأسد، فترى العذاب مع الإيمان منحة، تصفي النفس من شوائب الحياة.

ونموذج النفس الأولى، مصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي رأى أن متاع الدنيا ونعيمها لا يساوي لحظة يستمتع فيها بوقفة بين يدي الله، وأموالها أحقر من دينار ينفقه في سبيل الله، وساعات اللهو والمرح تسقط أمام ساعة يقضيها معلماً للناس أمور دينهم، فيحوز شرف تمهيد الطريق للدولة، وتهيئة النفوس لاستقبال دعوة السماء.

ويقتفي منهجه ذلك الشابُّ، المنعَّمُ المرفَّهُ المدلَّلُ، كان ذا مالٍ، فلم يجنح للسهر في الملاهي وصالات الحرام، وله وسامة وعذوبة حديث، لكنه لم يُجارِ الفتيات، ولو أراد لفعل، غير أنه كره حياة الدعة، ورفض الراحة، والمسجد الأقصى المبارك، يتعرض لإفساد المستوطنين وقوات البغي والعدوان، فينطلق بائعا نفسه وماله لله تعالى، فيلقى الله شهيدا وما ذاق لذة الدنيا، فتبكيه العيون، كما بكت الشهيد الشاب، مصعب بن عمير، تبكيه أو لا تبكيه، فقد فاز بمقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأما الثانية فنفس بلال بن رباح رضي الله عنه، الذي سامه المشركون سوء العذاب، فلم يكن عذابهم سوى طاقة يدخرها سنين حياته، يتقوى بها في كل محطة، إلى أن يصل بها إلى يوم الفتح، فيعلو سطح الكعبة المشرفة ويرفع الأذان، لم يكن ليعلو سطح الكعبة، لو لم يَعلُ بإيمانه على سياط الجلاد، حينما كان يصرخ.. أَحَدٌ.. أَحَدٌ.. إنه يفسد على الباطل نشوته بالنيل منه، ويقطع عليه محاولاتِهِ لإغرائه بالردة عن الإيمان، والتحول عن الفكرة، والقعود عن الدعوة.

وترى الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي يسيرون على خطى بلال، إنهم عُزلٌ من كل شيء، إلا من الإيمان، وفق معادلات الأسر يفترض أن يكونوا مطأطئي الرؤوس، خاضعي الجوارح، لكنهم ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء، فرؤوسهم شامخة، وكلما خضعت ساجدة لله، ارتفعت فوق عدوها، بما استمدته من القوة والمدد الإلهي، وجوارحهم هادئة مطمئنة لما أصابها، وكلما ارتعشت من خشية الله، انتفضت ثائرة على الظلم.

ليس الأمر عسيرا، فإذا أردت الله والدار الآخرة حقيقة لا مراء، ثَبَّتَ الله جَنَانَك؛ قال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ (إبراهيم:27)، وشرح صدرك؛ قال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (الزمر:22).

حقيقته:

لما دخل بنو إسرائيل في التيه قالوا لموسى عليه السلام: أين الطعام؟، فأنزل الله عليهم المَنَّ، فكان ينزل على شجرة الزنجبيل يشبه العسل، والسلوى، وهو طيور السماني، أو الفِرُّ في لهجتنا، فقالوا: هذا الطعام؛ فأين الشراب؟ فأُمِرَ موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب؛ فأين الظل؟ فظلَّلَ عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل؛ فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم، كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ (البقرة:57)[1].

كان عليهم –وهذا حالهم– أن يشكروا النعمة، لكنهم لم يكونوا على قَدرِ العطاء، ولا على قَدرِ المسؤولية، التي أُوكلت لهم، الآية التالية مباشرة تحكي حالهم، فنراهم يقعدون عن الجهاد الذي أُمروا به، ويرفضون دخول بيت المقدس، ولما أنعم الله عليهم، فدخلوا المدينة فاتحين، كان أمر الله لهم، ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ (البقرة:58)، لكنهم دخلوها يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة.

إن التربية بالمحنة لها دورٌ مهمٌ في صقل الشخصية المؤمنة، فلم تقم شريعة محمد ﷺ على المعجزات الحسية ابتداء؛ إذ إن ذلك يربط الإيمان بالمحسوس، فإذا لم يشاهدها العبد، كان في حِلٍّ من إيمانه، وإن رآها رأي العين، كان إيمانه على حرف، لا يلبث نور الإيمان أن ينطفئ، سيما إذا تعرض لابتلاءٍ حسيٍّ أعظمَ من المعجزة الحسية، أو ظنه هو كذلك.

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (1/ 415).

لقد رأى اليهود الآياتِ البيناتِ، التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام، وهي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفرق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن، والسلوى، والحجر[1]، ومع ذلك ينقلبون على أنبيائهم وشريعتهم، عند أول تحدٍّ، فيعبدون العجل من دون الله سبحانه وتعالى، فيستبدلون الذي هو أدنى، بالذي هو خير مرتين، الأولى في طعامهم، والثانية في عبادتهم.

وقد كان بنو إسرائيل أهلَ إيمانٍ حسيٍّ، أما أمة محمد ﷺ؛ فإن إيمانهم غيبيٌّ، لقد أكرم الله أهل هذه الشريعة بهذه الصفة العظيمة، إنها ليست صفة ثانوية، بل هي أولى صفات العباد المتقين، ولذلك لا يتسلل الشك إلى نفوسهم، أن النصر والتمكين متحقق لهذه الأمة، إنه أمر غيبي، وربما لم يروا مقدماتِهِ، لكنهم يؤمنون بأنه آتٍ لا ريبَ فيه، ويستفرغون طاقاتِهم عملاً لذلك اليوم، فكونهم من أمة محمد، فإن الشك لا يعتري مواقفهم، فهم على يقين بتحققه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي وعد بنصر دينه.

إننا نريد أن نكون من أولئك الأعجب إيمانا، الذين يسمعون بنبيٍّ لم يروه فيتبعونه، ويجدون كتابا فيؤمنون به، وعلى ذلك كلما اشتدت عليهم المحنة ازدادوا لمحمد ﷺ حُبَّاً، ولكتابهم تصديقا، وللإسلام اتباعا.

لقد شوَّق النبي ﷺ الأمة لمعرفة أولئك الناس، حتى ظنَّ الصحابة أنهم المعنيون، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، سأل الصحابة، فقال: **"أيُّ الخلق أعجبُ إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال:**

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير (1/ 415).

الملائكة كيف لا يؤمنون؟!، قالوا: النبيون، قال: النبيون يوحى إليهم؛ فكيف لا يؤمنون؟!، قالوا: الصحابة، قال: الصحابة مع الأنبياء؛ فكيف لا يؤمنون؟!، ولكن أعجب الناس إيماناً قومٌ يَجيئُون من بعدكم فيجدون كتاباً من الوحي؛ فيؤمنون به ويتَّبعونه، فهم أعجب الناس إيماناً -أو الخلق إيماناً-"[1].

وهؤلاء يؤمنون بأن الذي يحتاج قبل كل خطوة إلى آية بينة تُثَبِّتُ كيانه المهزوز، لن يبنيَ مجداً، وهو أهون من أن يتنزل له النصر..، يؤمنون بأن الجهاد فيه كل الخير للأمة، وإن كان ظاهره على غير ما تحبُّ النفس، ذلك أنه أمر من الله كالصلاة..، يؤمنون بأن الكثرة لن تحقق نصرا.. وأن المهزوم نفسياً لن يُنصر عسكريا..، يؤمنون بالنصر للفئة المؤمنة..، يؤمنون بأن المستقبل لهذا الدين، وإن تجبَّرَ أهل الباطل..، يؤمنون بذلك الغيب كله..، وهم في ذلك كأنما يرونه رأي العين.. فمن أصدق من الله الذي نبأهم في كتابه، ووعدهم وعد الحق؟!

وعليه؛ فهذا هو القسم الأول من الإيمان، المتعلق بعالم الغيب والشهادة، أما القسم الثاني، فهو متعلق به من حيثُ الأصل.

وأقصد بالأصل أصلَ هذا الإيمان، وهو هنا ينقسم أيضا إلى قسمين، فطري ومكتسب، فأما الأول؛ فمن كرم الله تعالى علينا أن وُلِدنا مسلمين، كما قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (الروم:30).

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني (13/ 18).

أما الإيمان المكتسب، فهو الذي تصنعه التحديات، إما من خلال الظروف المحيطة الخارجة عن الإرادة؛ كالتهجير من الوطن، واعتقال الرجال والنساء، والحصار، والمعارك، أو هي ظروف يتمُّ تهيئتها من الجماعة المؤمنة، والنبي فعل ذلك من خلال بثِّ السرايا؛ إذ جهَّز منذ رمضان في السنة الأولى للهجرة، إلى رمضان من السنة الثانية ثماني سرايا[1].

إنَّ المجتمع الفلسطيني يفعل هذا من خلال جولات التدريب، التي تتمُّ للفتوة والمجاهدين في غزة، فهؤلاء يتم تحريك إيمانهم الفطري، لِيُعجَنَ بإيمان مكتسب، ينالونه في ميادين الإعداد.

[1] المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان (ص:170).

ثمرته:

إن الثبات على الإيمان نعمة من الله تعالى، وهذه النعمة ترفع صاحبها، حتى يصل إلى مرتبة الوليّ؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله قال: "**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويدَه التي يبطش بها، وَرِجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته**"[1].

إنَّ هذا الحديث قد بيَّن قاعدة ذهبية، وهي: أن المسلم إذا حقق أمرين، هما: المداومة على أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، وكلاهما ذكر الجوارح، وفيهما أيضا ذكر باللسان (تلاوة القرآن والتسبيح، والتحميد والدعاء)، نال حُبَّ الحقِّ تبارك وتعالى، ومستحقات هذه المحبة، التي يمنُّ الله بها على أحبابه، ثلاثة، وهي:

1- الإلهام في كل الأعمال، فلا يسمع هذا الوليُّ إلا ذكرا، ولا يبصر إلا خيرا، ولا تتحرك يداه ورجلاه إلا بطاعة، وإن أذنب سرعان ما يتوب ويعود.

2- ثم من تبعات هذه الدرجة الرفيعة، التي حازها هذا السعيد، إجابة الدعاء، بمنحه خيريِ الدنيا والآخرة، وصرفِ كلِّ سوءٍ عنه.

---

[1] صحيح البخاري (8/ 105).

3- إعلان الحرب على من ناصب هؤلاء الأولياء العداء (كما جاء في مقدمة الحديث).

ولكن ليكن واضحا أنه حتى تقبل منك هذه العبادة، ولتحوز هذه الشرف العظيم (أن تكون وليا لله تعالى)، فلا يقبل منك أن تذكره بجوارحك وروحُك مشغولةٌ عنه بغيره، أو تذكره بلسانك وقلبك ساهٍ عنه فيما سواه.

إن أولياء الله جنوده في أرضه، يرهب بهم أعداءه، كنا نسمع عنهم في الزمن الأول، فأصبحنا نراهم رأي العين، تقدَّموا نحو مواقع العدوَّ في زيكيم، وشرق غزة، وخانيونس، وغيرها، فقتلوا وغنموا وأسروا، وكلهم حاز نصراً، سواءٌ منهم من رجع إلى أهله في الدنيا، ومن صعد إلى أهله من الحور العين.

ولنا أن نتخيل، كم تقَدَّمَ أولئك نحو الله متهجدين في ثلث الليل الآخر، ليتقدَّموا بثباتٍ نحو العدو..، كم تقدموا في أعمال البر ليتقدموا دون خوف عشرات الكيلومترات، ويتجاوزوا خطوط العدو.. فلا يعلو في المعركة إلا صوت بنادقهم وحناجرهم..، أما عدوهم فلا تسمع لهم ركزا..

الركن الثاني: الفهم

رغم الحثِّ على المعرفة في أول آية نزلت من كتاب الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ ﴾، لكنها في حقيقتها دعوة للفهم الموصول بالإيمان، فهم وفق القوانين الربانية، وقوله سبحانه وتعالى بعدها ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، يدل على حقيقة الفهم المقصود، إنه فهم ينطلق من قاعدة

إيمانية صلبة، فهم وفق مراد الخالق سبحانه وتعالى، إذن الإيمان أولاً، فلا فَهمَ بدون إيمان.

ومن خلال هاتين الخصلتين ندرك أنهما أساس الدعوة والجهاد، فمتى تحصلت الجماعة على الإيمان والفهم، جاز لها أن تنطلق في ميدان الدعوة والجهاد، وفق مقتضيات واقعها، ومتطلبات عصرها.

والعمل يكون بقدر اختلاط الإيمان بالفهم، فهما متلازمان، فمتى آمنت؛ فلابد أن تفهم حقيقة الإيمان، ودورَه في الحياة، وحقيقة علاقتك بالمجتمع، وعلاقة الجماعة ببعضها، علاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالفرد، وعلاقة المجتمع المؤمن بأهل الديانات الأخرى في المجتمع.

نموذجه:

يختلف الفهم من شخصٍ لآخرَ في هذه الدعوة، فمنهم من يفهم الإيمان فهما كاملا بسرعة فائقة، وبعضهم الآخر يفهم يسيره بسرعة، ويحتاج سنينَ طويلة، وربما سني حياته كلها، حتى يفهم مقتضياتِ الإيمان.

ولا أجد مثالا راقيا للفهم الدقيق السريع، إلا ما كان من الأنصار، لقدِ التقى أولئك الأخيار، برسول الله ﷺ ثلاث مرات، خلال ثلاثة أعوام، فكان قبول دعوته منهم فهما عجيبا، واللقاءات على النحو التالي:

اللقاء الأول:

كان في السنةِ الحاديةَ عشرةَ للبعثة، التقى النبيُّ بستة نفر من الخزرج عند العقبة، "ولما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا:

نفرٍ من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال أفلا تجلسون أُكَلِّمكم؟ قالوا بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أنَّ يهودَ كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهلَ كتاب وعلم، وكانوا هم أهلَ شركٍ وأصحابَ أوثانٍ، وكانوا قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ؛ قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن قد أظلَّ زمانه نتبعه، فنقتلكم معه قَتلَ عادٍ وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه لَلنبيُّ الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم الى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا"[1].

اللقاء الثاني:

هذا اللقاء هو بيعة العقبة الأولى، في السنةِ الثانيةَ عشرةَ للبعثة؛ إذ جاء منهم اثنا عشر رجلاً، وكانوا هذه المرة عشرةً من الخزرج، واثنين من الأوس، فبايعوا رسول الله ﷺ كبيعة النساء، ولم يكن أمر بالقتال بعد، فلما انصرفوا إلى المدينة، بعث معهم رسول الله ﷺ عمرو بنَ أُمِّ مكتوم، ومصعب بنَ عمير، يعلمان من أسلم منهم القرآن، ويدعوان

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (2/ 276-277).

إلى الله عزَّ وجل، فنزلا على أبي أمامةَ أسعدَ بنِ زُرارة، وكان مصعب بن عمير يَؤُمُّهم، فأسلم على يديهما عدد كبير من الأنصار[1].

اللقاء الثالث:

وهو بيعة العقبة الثانية، في السنة الثالثةَ عشرةَ للبعثة، ولعظيم هذا المشهد، فإني أسوقه كاملاً، وأفسح المجال لأحد عظماء الفهم السديد؛ أن يصف ذلك الموقف المهيب، والمشاعر الصادقة، والظروف المحيطة، والكلمات المؤثرة، والقلوب المتلهفة لنصرة الحق، إليكم شهادة أحد رجال أعظم بيعة في التاريخ الإنساني، وهو كعب بن مالك رضي الله عنه.

يقول كعب: خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، قال فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه الى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبا.

فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا،

---

[1] الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (ص:16-17).

ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

قال فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثَّقَ له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشرَ الخزرج، قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها: إن محمدا منا حيثُ قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا الى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم"، قال فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فَبَايِعنا يا رسولَ الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسولَ الله: إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها -يعني اليهود- فهل

عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟

قال: فتبسَّم رسول الله ﷺ، ثم قال: "بل الدمُ الدم والهدمُ الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم[1].

أيُّ فهم هذا؟ لقد كانوا مستعدِّين للعطاء منذ البداية، فقالوا: "قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت".

ثم الاستعداد السريع للبيعة، مع ما يترتب عليها من الجهاد في سبيل الله؛ لحماية رسول الله ﷺ؛ والدفاع عن هذا الدين، يتجلى هذا في سرعة استجابة البراء بن معرور رضي الله عنه، ولم يكن ذلك اندفاعا دون فهم، بل هي المسارعة إلى خير الدنيا والآخرة، بعد إيمان وفهم.

وانظر إلى فهم الأنصار رضي الله عنهم، عندما قال أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه: "يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها...".

إنه فهم عجيب، فلا يلتقي إيمان في قلب امرئ وموالاة أعداء الله، سيقطعون كلِّ حلف لهم مع اليهود، حتى وإن كان يترتب على ذلك خسائرُ اقتصاديةٌ وسياسية.

ثم إن تمام كلامه: "فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع الى قومك وتدعنا؟" فكان أن تبسم رسول الله ﷺ، وكأنه يقرِّهم على السؤال، فمن حقهم أن يحيطوا بالأمر إحاطة تامة، فهو استيضاحٌ محمودٌ؛ لتكون البيعة على فهمٍ كامل.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (2/ 289-292).

يا أسعد أَمِط عنا يدك:

وما زلنا مع الفهم الأنصاري، وإليكم رواية المباركفوري، التي تؤكد هذا المعنى، حيث يقول: وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها، قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في اللقاءين السابقين، قام أحدهما تلو الآخر؛ ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نَضْلَة: هل تدورن علامَ تبايعون هذا الرجل؟، قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم تَرَونَ أنكم إذا نَهَكَتْ أموالكُم مصيبة، وأشرافكُم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَّينا بذلك؟ قال: "الجنة". قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

وفي رواية جابر قال: فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغر السبعين، فقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تَعَضَّكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة

فذروه، فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا: يا أسعد، أمِطْ عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها..."[1].

امتلأ العقل فهماً، ثم فاض على الجوارح، فأرادتِ الأيدي السباق إلى البيعة، فكان لابد من بيان أخير، من العباس بن عبادة بن نَضْلَة، وأسعد بن زرارة، ليتأكد قادة الأنصار أن قومهم قد أحاطوا بالأمر من جميع جوانبه، ويعلمون تبعاته، إنهم يريدون لهم عِزَّ الدنيا والآخرة، لكنهم يخافون عليهم خزيا لا يرفع، إن خلص إلى رسول الله ﷺ سوء، فكانت كلمتهم: "يا أسعد، أمِطْ عنا يدك. فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها".

يا أسعد بقي أن تصافح اليد اليد..، أما القلوب والعقول فقد بايعت.. بايعت على نهكة الأموال، وقتل الأشراف..، ومفارقة العرب والعجم.. وأن تعضَّنا السيوف.. يا أسعد: أنفسٌ وأموالٌ نبيعها لله تعالى، ثم تكون لنا الجنة إن نحن وَفَّينا..؛ إنها صفقة رابحة..

يا أسعد: سنبايع مثلكم بيعة مع الله، بقلوبنا وعقولنا وألسنتنا، غير أن أيدِيَنا لن تَشرُفَ بمصافحة يد محمد ﷺ، ونحن نعلم أن ما ذكرته أنت والعباس سيصيبنا، لكننا نطمع في الجائزة التي سننالها إن نحن وَفَّينا.

حقيقته:

إنما شفاء العي السؤال[1]، وهذا ما فعله الأنصار، والسؤال أحد أهم عوامل الفهم، فلا يتردد أبناء الدعوة في السؤال، إذا أرادوا فهم طبيعة الصراع مع المحتل، أو الوصول إلى الحقيقة في أي مسألة.

---

[1] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:117-118).

لقد فهم الأنصار حقيقة المعركة مع الباطل، ومن ضمن ذلك ضرورة قطع علاقاتهم باليهود، وعلى أبناء فلسطين وهم يتطلعون إلى تحرير أرضهم، أن يعرفوا عدوهم جيدا، وأن يعرفوا أبعاد الصراع السياسية والعقائدية، فمن تجاهل السياسة، لم يفهم مبتدأ الوجود الصهيوني في أرضنا، ومن تجاهل الدين، لم يفهم أخلاق اليهود، وكيفية التعامل معهم.

وعلى المجتمع أن يعمل لتحقيق ذلك الفهم عند أفراده، فيبدأ الدور المحوري في البيت، ويبلور المسجدُ الرسالةَ، ويصوغها بقوالبَ أفضلَ، ثم يأتي دور المؤسسات التعليمية، والرياضية، والإعلامية، والفكرية، والسياسية.

إنَّ الأسر الدعوية جزء من التخطيط الدعوي؛ لصياغة فهم نوعي، فهم النخبة المؤمنة، وفق مقتضيات الشريعة، وهذا النظام الدعوي، له أصل في السنة النبوية، ومنه الأسرة الدعوية، التي جمعت فاطمة أخت عمر بن الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد، وخباب بن الأرت، وكانوا يوم إسلام عمر يتدارسون سورة طه.

كما أن اللقاء الجماهيري له دوره في تشكيل الفهم الجمعي، وهذا يمثله في السُّنَّةِ دارُ الأرقم، التي كانت ميدانا فسيحا للفهم والمعرفة.

وعلى ضرورة تواصل الحركة الإسلامية مع مجتمعها بكل مكوناته وطوائفه؛ لتحقيق فهم شامل، إلا أن خطوتها الأولى، ينبغي أن تكون باتجاه كوادرها وأنصارها، فتطلعهم على التفاصيل المهمة، والقرارات الكبيرة، دون إبطاء أو غموض، وواجب الشباب ألا يطلقوا سهام

---

(1) حديث نبوي، جاء في سنن أبي داود وابن ماجة وغيرِهما.

التخوين والتكفير، بل أن يسألوا ويحاوروا، فإذا تأكد لهم مخالفة صريحة للكتاب والسنة، نصحوا وبيَّنوا، أما إذا انجلى لهم خلاف ذلك، بأن كان اجتهاداً، مما تقتضيه السياسة الشرعية، سألوا الله أن تنشرح له صدورهم.

إن وحدة الفهم تتحقق بعاملين مهمين، هما: السؤال، والحوار، فشفاء العَيِّ السؤال، وهذا ما فعله الأنصار يوم الأحزاب، عندما استشار رسول الله ﷺ، سعدَ بنَ معاذٍ وسعدَ بنَ عبادةَ في الأمر، فقالا له: "**يا رسول الله أمرٌ تحبه فنصنعه، أو شيءٌ أمرك الله به لا بد لنا من عمل به، أم شيءٌ تصنعه لنا؟، فقال: لا بل لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم**"[1]، والحوار يقابل الحجة بالحجة، ويزيل الوهم بأدلةٍ وشواهدَ، تنساق من قلب صادق.

لا ريبَ أن قيادة الحركة الإسلامية ليست مؤيدة بالوحي، فهو من خصائص النبوة، لكنها مؤيدة بالهداية التي تنبغي لكل مؤمن أخلص قلبه لله، وجمع أمره أن ينصح لشعبه وأمته، وأخذ بمبدأ الشورى، وقَلَّبَ المسألة جيداً؛ حتى يتبين له خيرها من شرها.

ثمرته:

أثر الفهم على العبادة، أن تؤديها بحبٍّ واقتناع، فيكون جزاء ذلك أن يُوضعَ لك الحبُّ في الأرض، وإذا أردنا أن نطبق ذلك على الأنصار؛ فإننا نعلم أنه ما من مؤمن على وجه الأرض، إلا ويحب

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي (3/ 430).

الأنصار؛ لأنهم أخذوا هذا الدين بفهم شامل، فكانوا أكثر إخلاصا له، وما طمعوا في مغنم، فعوَّضهم الله حُبَّ الأمة لهم.

بل وأصبح حبهم أو بغضهم علامةً على الإيمان أو النفاق؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "**آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**"[1].

أي كرامة هذه، التي شَرُفَ بها أنصار رسول الله ﷺ، لا غرابةَ أبداً، فقد رضوا بأن يذهب الناس بالشاء والبعير، ويذهبون هم برسول الله، فكان لهم الجزاء الأوفى، فمن ذا الذي يسمع بالأنصار؛ فلا يحبهم؟!، ومن ذا الذي يقف على صفاء فهمهم، فلا يتشبه بهم؟!

وكذلك ما من مؤمن إلا ويحبُّ إخوانه المرابطين في فلسطين، ذلك أنهم فهموا الكتاب والسنة، ففهموا الطبيعة التي جُبِلَ عليها اليهود، وكيف تُستردُّ الحقوق.

وما الحبُّ الأرضي إلا نتيجة طبيعية للحبِّ السماوي، فمن أحبه الله لا يضلُّ ولا يشقى، لا يضلُّ في صراعه مع عدوه، ولا يشقى؛ وإن تخلى عنه أهل الأرض.

وإذا كانت ثمرة الفهم على العبادة أن تؤدى بحبٍّ واقتناع؛ فإن أثرها على البناء التنظيمي، أن يظل متماسكا صلبا، بعد أن يفهم أبناء الحركة الإسلامية مراميَ القرارات والإجراءات، التي يُظنُّ بها معاكسةَ المنطق القويم، وأبجدياتِ التربية الإسلامية، وكذلك يكون الفهم عند المجتمع المسلم، فينتزع بذلك فتيل أي انشقاقٍ في الصف الإسلامي، ولا ضيرَ بعدئذٍ أن تتعدد الآراء والاجتهادات، دون تضاربٍ وتضادٍّ،

---

[1] صحيح البخاري (5/ 32).

وذلك في دائرتين مهمتين لا غنى عنهما، وهما: قاعدة الحركة الإسلامية، والمجتمع، فإذا كسبت الحركة الإسلامية الدائرة الأولى، كانت من الثانية أيسرَ وأقرب، وإذا فشلت مع الأولى كانت من الثانية أعسرَ وأبعد.

الركن الثالث: الإعداد

بعد أن تُحَقِّقَ الجماعة المؤمنة إيمان المهاجرين، وفهم الأنصار، عليها أن تبدأ بالركن الثالث، ولا إعداد قبل إيمان وفهم، ولا نصر بدون إعداد.

فمع أن أهل بدر خرجوا للعير، ولم يكونوا قد أعدوا أنفسهم جيداً للقتال، إلا أن هذه الغزوة سبقها غزوات وسرايا حققت بعض الإعداد العسكري.

ومن أهمها: غزوة الأبواء، وسرية عبيدةَ بن الحارث، وسرية حمزةَ بن عبد المطلب، وغزوة بُوَاط، وغزوة العُشَيرَة، وسرية سعد بن أبي وقاص، وغزوة بدر الأُولى، وسرية عبد الله بن جحش الأسدي[1]، لكن على القيادة –وهي تخوض مع جنودها معركة الإعداد– أن تعلم ويعلموا، أن النصر لا يتنزل لإعدادٍ جزئيّ، فقد أعد المسلمون أنفسهم إعدادا حربيا جيدا في غزوة أُحُدٍ، وكانوا أكثر عددا وعدة حربية في حنين، وبناء على هذا المفهوم؛ فإن الإعداد لا يقتصر على الإعداد الحربي، من غير أن ينقص ذلك من شأنه.

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (1/ 442-444).

نموذجه:

لما بلغ رسول الله ﷺ أن عِيراً لقريش في طريقها من الشام إلى مكة، بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال؛ ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء، ومكثا حتى مَرَّ بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر، وكانت العير تحمل ثرواتٍ طائلةً لكبار أهل مكة ورؤسائها: ألف بعير موقرة بأموال لا تقلُّ عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من رجال الحرب إلا نحو أربعين رجلا[1].

فكانت فرصة عظيمة أن يسترد المسلمون بعض أموالهم التي نهبتها قريش، وأن يوجِّهوا لجيش الباطل ضربة اقتصادية قوية، فندب رسول الله ﷺ المسلمين إلى الخروج، وقال: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله يُنفِّلكُموها"، ولذلك خَفَّ بعض الناس، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا[2].

وبعث أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري، إلى قريش يستنفرهم إلى أموالهم، فخرج ضمضم سريعا، حتى قدم على قريش بمكة وقال: يا معشر قريش، اللطيمة قد عرض لها محمد في أصحابه –واللطيمة هي التجارة– الغوثَ الغوثَ، وما أظن أن تدركوها"[3].

فخرجت قريش بكبريائها، ومع أن الله كتب النجاة للقافلة، إلا أن غرور قريش أبى عليها العودة، فكانت لها الذلة، وعلم الرسول بما

---

[1] الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:156).

[2] السيرة النبوية لابن هشام (3/ 152–153).

[3] دلائل النبوة للبيهقي (3/ 4).

عزمت عليه مكة، فاستشار الصحابة الكرام، وهنا تُسَجَّلُ أعظم مواقف الإعداد، فقد خرج المؤمنون يريدون عِيراً، لكن الله أراد لهم نفيراً، وهو سبحانه أعلم بما يصلحهم، فله الحكمة البالغة، ولذلك كان الإعداد الإيماني، والنفسي، والعلمي، والعسكري للجيش الإسلامي.

إعداد إيماني بتحقيق مقصد نصرة الإسلام، ورفعة شأنه، وإعداد نفسي للجهاد، وتقبُّلِ تبعاته على النفس والمال، وإعداد علمي بمعرفة طبيعة المكان، وعدد العدو[1]، وعسكري بتجهيز عدة القتال وخطة المعركة.

إنه قمة السمو الذي يقترب من الملائكية، لولا أنه بشريٌّ، جيش خرج مستعداً للكَرِّ على القافلة، فتكون مدة العملية يوماً أو بعض يوم، فيعود بنصر وغنيمة دون أن يُرفعَ في وجهه سيف أو رمح، ويعود محملا بأموال لا تقلُّ عن خمسين ألف دينار ذهبي، ثم ما تلبث القافلة أن تنجوَ، فَتُعرضُ المسألة على الجيش ويخيَّر، ولم يكن أمراً، فلو كان أمراً لما وسعهم إلا الطاعة، لكنه يخيرهم ويستشيرهم، فيختارون القتال، كان لقاء العير كرة واحدة، فأصبح النفير الذي يحتاج كراً وفراً ومجالدة ورمياً، فَطُوبى لهذه النفوس، التي تستوي لديها المشقة والراحة في سبيل الله، والعسير واليسير لإعلاء كلمة الله، والبذل والأخذ للدفاع عن النبي ﷺ والمقدسات.

---

[1] يوم بدر اعتقل المسلمون غلامين، يسقيان لقريش، فسألهما رسول الله ﷺ، كم ينحر القوم كلَّ يوم؟، فقالوا: يوما عشراً، ويوما تسعاً، فقال رسول الله ﷺ: "القوم بين الألف والتسعمائة". دلائل النبوة للبيهقي (3/ 22).

ولو كان هذا الجيش قد رُبِّيَ فقط على الإعداد الحربي، دون أنواع الإعداد الأخرى، لما كان قادرا على تبني الخطة الجديدة، وتحمل تبعاتها.

حقيقته:

قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴾ (الأنفال:60).

الإعداد يسبق المعارك، ويتم بإعداد الأجسام، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة، وإعداد العُدُد، وهي تحتاج إلى بحث في عناصر الأرض، وبحث في الصناعات المختلفة؛ ليتم اختيار الأفضل منها. وكل عمليات الإعداد تتطلب من الإنسان البحث والصنعة[1].

أما المراد بالقوة في هذه الآية، فقد جمع ابن الجوزي أقوال العلماء فيها، فجاءت في أربعة أقوال، وهي: **الأول:** أنها الرمي، رواه عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ، **والثاني:** الخيل، **والثالث:** السلاح، **والرابع:** أنه كل ما يُتقوَّى به على حرب العدو من آلة الجهاد[2].

وحديث عقبةَ الذي يشير إليه ابن الجوزي في القول الأول، هو حديثه في صحيح مسلم، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر

---

[1] تفسير الشعراوي (ص:1758).

[2] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (3/ 132).

يقول: "**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**"[1].

ومع وجاهة هذه الأقوال، سيَّما الأول؛ فإنها جميعاً تظلُّ محصورة في القوة البدنية (الرمي)، وآلة الجهاد العسكري، إلا أنني أرى أن مجيءَ كلمة ﴿**قُوَّةٍ**﴾ نكرة، يفتح المجال أمامها، لتشمل كلَّ قوةٍ يستعان بها في المعركة مع العدو.

إنها تتناول كلَّ قوة عقلية، وبدنية، وسياسية، وصناعية، ومالية، ونحوها[2]؛ بل وكلَّ قوة إعلامية، فقد قال رسول الله ﷺ، لحسان بن ثابت: "**اهجُهم – أو هاجِهِم وجبريل معك**"[3]، وقال معدَّداً أشكال جهاد العدو: "**جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم**"[4].

وللتذكير؛ فإن إطلاق الرمي في الحديث يشمل كلَّ ما يُرمى به العدو من سهم، أو قذيفة منجنيق، أو طيارة، أو بندقية، أو مدفع، وغير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفا في عصره ﷺ، فإن اللفظ يشمله، والمراد منه يقتضيه[5].

---

[1] صحيح مسلم (6/ 52).

[2] القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي (ص:30).

[3] صحيح البخاري (4/ 112).

[4] سنن أبي داود (2/ 318).

[5] تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (10/ 53).

أما قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾، فالرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطا[1].

والمراد الحثُّ على استعداد الخيل التي تربط وتعلف بقصد الجهاد، وهو من جملة القوة، فهو من عطف الخاص على العام، للاعتناء بأمر الخيل؛ لما فيها من الإرهاب[2].

إننا نُعِدُّ قلوبنا عند الصلاة، خشوعاً وذلة لله سبحانه، وكذلك الإعداد لملاقاة العدو، نعد أنفسنا إيمانيا، ونفسيا، وعلميا، وعسكريا.

وعليه؛ فإننا مطالبون بإعداد كل قوة لمواجهة العدو، أما القوة العسكرية، فهي قوة متعلقة بالمقاتل، وقوة مساندة متعلقة برباط الخيل، وهي في زماننا الدبابة، والطائرة، وطائرات الاستطلاع، ومنصات الصواريخ، والزوارق، وكلُّ ما يلحق بها؛ مثل النفق، والموقع، وكاميرات المراقبة، وغيرها مما يفتح الله به على عباده.

ثمرته:

ثمرة ذلك الإعداد واضحة في قوله تعالى: ﴿**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾.

وقد ذكر أهل التفسير أقوالاً عديدة، في المقصودين بقوله تعالى: ﴿**عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾، والملفت للنظر أن القرطبي ذكر اليهود على

---

[1] لسان العرب لابن منظور (7/ 302).

[2] البحر المديد لابن عجيبة (3/ 56).

رأس أولئك، فقال: يعني تخيفون به عدوَّ الله وعدوَّكم، من اليهود، وقريش، وكفارِ العرب[1].

أما المعنيون بقوله تعالى: ﴿**وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾، فجمعها الماوردي في خمسة أقوال، هي: **الأول**: هم بنو قريظة، **والثاني**: أهل فارس والروم، **والثالث**: المنافقون، **والرابع**: الشياطين، **والخامس**: كل من لا تعرفون عداوته[2].

أما عدوُّ الله وعدوُّنا الذين نقاتلهم الآن؛ لنخرجهم من حيثُ أخرجونا، فهم اليهود، وقد سمعنا ورأينا ضعفهم وخورهم وفرار جنودهم، أمام الجنود المؤيدين بمعية الله، لقد رأينا حقيقة الجندي الإسرائيلي المهزوز، الذي يملك كلَّ شيء، ولا يملك شيئاً، ورأينا المقاتل المؤمن، الذي لا يملك شيئاً، ولكنه يملك كلَّ شيءٍ، هذا ليس لغزاً، وإنما هو الواقع، فالجنديُّ الإسرائيليُّ لديه المال، والسلاح، والمتع الدنيوية، وكلُّ الإمكانات المادية، غير أنه صاحب عقيدة فاسدة، فلن يغني عنه كل ما يملكه شيئا، وفي المقابل إذا قارنت إمكاناتِ فسطاط الشرك وفسطاط التوحيد، قلت بأن الجندي المؤمن، لا يملك من ذلك شيئا يذكر، لكنه يحمل عقيدة التوحيد، العقيدة التي بها نصول، وبها نجول، وبها نقاتل، ولذلك فأين السلاح والعتاد من العقيدة؟!، لا ننكر أهمية السلاح، لكن أول سلاح وأعظمه هو سلاح التوحيد، سلاح الروح التي تريد للجسد الفناء؛ لتضمن للإسلام البقاء.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (8/ 36).

[2] النكت والعيون للماوردي (2/ 78).

وهنا أسير على نهج العلماء والمجاهدين، فأنبه إلى أننا لا نقاتل الدين اليهودي، وإنما نقاتل الاحتلال اليهودي، فلا مُقامَ له في أرضنا، وإرهابه واجب حتى نخرجه بقوة الإيمان، وقوة البندقية.

الركن الرابع: الثبات

"**اثبُت أُحُد؛ فإنما عليك نبيٌّ، وصِدِّيقٌ، وشهيدان**"[1]، ارتجف جبل أُحُد لشدة الموقف وهوله، ارتجف وهو الجبل الشامخ، إنه موقف عظيم، يُستقبل فيه الإمامُ الأعظم، والثلاثةُ السابقون، لكن المؤمنين كانوا أثبتَ من أُحُد، لم يرتجفوا حينما اختاروا الإسلام على سواه، وقد علموا أنه حمل ثقيل، ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ (المزمل:5)، اضطرب أُحُد وثبتوا، ثبتوا لمَّا كانوا قليلاً مستضعفين، وجماعةً محاصرين، وكياناً سياسياً لكنهم مهددون.

نموذجه:

يوم الأحزاب أرسل أبو سفيان رسالة للنبي ﷺ، فيها تهديد ووعيد، جاء فيها: "باسمك اللهم. فإني أحلف باللات والعزى: لقد سرتُ إليك في جمعنا، وإنا نريد أَلَّا نعوَد أبداً حتى نستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علَّمك هذا؟!، فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أُحُد".

إن هذه هي العنجهية ذاتها، التي تحكم عقلية المعادين للإسلام، ففي زماننا تمارس وسائل الإعلام، حرباً دعائية على من تعتقد أنهم

---

[1] صحيح البخاري (5/ 9).

يهددون مشروعها التخريبي، وتزداد وتيرة هذه الدعاية عند اتخاذ قرار بتنفيذ عمل عسكري ضد جماعة، أو بلد عربي، أو مسلم، فترى الحرب الإعلامية تسبق المعركة وتصاحبها، وإذا انجلى غبارها عن نصر للعدو بطر وتكبر، وتحول الأمر من الدعاية إلى الحقيقة، بحيثُ يعرض صور المؤمنين مكبَّلين مهزومين، أما إذا كان العكس هو الصحيحَ؛ رأيته رويداً رويداً يعرض ويناقش هزائمه وفشله.

كان ذلك تهديدَ قريش؛ فكيف كان الرد النبوي؟

كان رداً عمليا، فالنبي ﷺ يشارك صحابته في حمل التراب، ويرددون بلسان واحد:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينـــا
فأنزلـــن سكينـــة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغـوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينـــا[1]

الرد كان تدريبا عمليا لرفع الروح المعنوية، إنها كلمات معدودة، صيغت على شكل أهازيجَ، كانوا وكأنهم في حفل زفاف، إنه قمة الاستهزاء بالعدو، فنحن لا نقيم لكم وزناً، لستم ببالنا لنشغل أنفسنا بالرد عليكم، فنحن نلجأ إلى من بيده الأمر، صاحب القوة العظمى، فالقرار ليس لأحدنا، بل لله وحده، نحن فقط يمكن أن نكون جزءاً من

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 181).

الأمر، وذلك حينما نعلن الذلة والخضوع لله تعالى، فذلك كفيل بقلب الموازين، وترجيح كفة القلة المؤمنة على الكثرة الفاجرة.

كلمات قليلة المبنى، عظيمة المعنى، تبيّن طبيعة المعادلة، فالثباتَ الثباتَ على العقيدة، فهي لحمك ودمك، "وإن أرادوا فتنة أبينا"، يعقبها الأعمال الصالحة، الصلاة والصيام والصدقات، وغيرها من أعمال البر، وانتبه أيها المؤمن، فالتوفيق للطاعة هداية الله وحده، فإن حرصت على الأمرين: العقيدة الصحيحة، والأعمال الصالحة؛ حُزتَ المعية الربانية، فسعت السكينة إليك.

حقيقته:

إن غزوة الأحزاب جمعت أشكال الثبات كافة، ولذلك كان المؤمنون يوم الأحزاب خيرَ نموذجٍ لهذا الركن المهم من أركان النصر.

وسنجد أن حقيقة الثبات، وهو الركن الرابع من أركان النصر، وثيقُ الصلة بثبات الصلاة، وهو أربعة أقسام، ولابد أن تكون كلُّها مجتمعةً في الفرد والجماعة المؤمنة، فكما أنها جميعاً مطلوبة في الصلاة، فكذلك لا غنى عن أحدها في معركة النصر والتحرير، وهي كما يلي:

الأول: ثبات القلب: إنه كحضور القلب في الصلاة، وهو فيها مطاردة للشيطان، فليس له من ذلك القلب الخاشع أدنى نصيب، وهو في موضع القتال مطاردة للشرك وأهله، فليس لهم فيه حُبٌّ ولا موالاة.

وقد كان هذا يوم الأحزاب، ذلك أنه لما أخرج يهود بني النضير من المدينة إلى خيبر، بدأوا يفكرون بالانتقام من المسلمين، فاتصلوا بالقبائل العربية، وحرَّضوها على حرب النبي ﷺ، بل وقادهم الحقد

لتفضيل دين المشركين على دين محمد، فقالوا لهم: "دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه"[1]، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا**﴾ (النساء:51-52).

وبعد تلك اللقاءات والمباحثات رجع الوفد اليهودي إلى المدينة، ومعه عشرة آلاف مقاتل، أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها[2]، عشرة آلاف مقاتل، هم أكثر من عدد أهل المدينة جميعاً، لكن ذلك ما زاد المؤمنين إلا ثباتاً، فصدَّقوا الله ورسوله، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾ (الأحزاب:22).

الثاني: ثبات الجوارح: ليقف المؤمنون في وجه العدو صفا مرصوصا، وهو كالثبات صفا محكما في الصلاة، وهو أحد أهمِّ خصاصها، وإذا كانت الغاية في الصلاة عدمَ فواتِ الخشوع بكثرة الحركة؛ فإن غاية الثبات في المعركة عدمُ ضياع هيبة الجيش الإسلامي.

لقد كان الموقف في غزوة الأحزاب في غاية الصعوبة، وماذا نريد أكثر من الوصف القرآني البليغ: ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا**

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 171).

[2] السيرة النبوية للصلابي (2/ 259).

زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:11)، كان زلزالاً شديداً، زاغت الأبصار من شدته، وبلغت القلوب الحناجر لهوله، سيما بعد أن نقض يهود بني قريظة عهدهم مع المؤمنين، وانسحب المنافقون من الجيش، لكن وبفضل الله تحقق هذا النوع من الثبات للفئة المؤمنة، فثبَّتَ الله الأقدام، وتوجَّهت الأبصار نحو العدو الخطير الذي يحاصر المدينة، فلم تصرف إلى العدو الداخلي، فتتشتت القوة، وتذهب الطاقات هدراً، على أن يكون لهم مع المنافقين واليهود شأنٌ آخرُ، بعد الفراغ من مدافعة الأحزاب عن المدينة.

الثالث: ثبات المنهج: وهو في الصلاة ثبات منهجي، بمعنى أن تداوم على أدائها كاملة، فلا تأتي صلاة وتقطع أخرى، وكذلك هو الثبات على المنهج في معركة التحرير، فلا اجتزاء منه، ولا نكوص عنه إلى غيره.

ويتجلى الثبات على المنهج زمن المحنة، في موقف السعدين رضي الله عنهما، وتفصيل ذلك أنه لمَّا اشتدَّ على الناس البلاء، بعث رسول الله ﷺ، إلى عيينةَ بن حصن بن حذيفةَ بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثةَ المري، وهما قائدا غطفان، فاتفق معهما على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، وقبل عقد الصلح شاور الصحابة، فقال السعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة: يا رسول الله أمراً تحبه، فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم، من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن

معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً، أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟!، والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال ليجهدوا علينا[1]. ولم يكن الصحابة الكرام، أكثرَ ثباتاً من رسول الله ﷺ، فالنبيُّ ما صنع ذلك إلا رحمة بهم، وشفقة لحالهم، لكنهم أخذوا بالعزيمة، فأثبتوا صدق الانتماء للمنهج.

الرابع: ثبات الروح المعنوية: هذه الروح الملائكية تسمو بصاحبها في الصلاة، وفي ميدان المعركة، ونتيجتها في الصلاة أنها تحتقر مُتَعَ الدنيا، وتحلِّق مع متاع الآخرة، أما في القتال، فتعلم يقيناً أن أعداء الله هم أهون عليه سبحانه من أن ينصرهم، وأن أولياءه أعزُّ وأكرم عليه من أن يخذلهم، فيطمئنوا لعلوِّ كلمة الإسلام، ولو بعد حين.

ومثال هذا الثبات، أن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: "لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول، فقال: بسم الله، فضرب ضربة، فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر،

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 180-181).

أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله؛ فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة"[1].

ثمرته:

إنَّ ثمرة الثبات الأولى هي نصر إلهي يتنزل في لحظة حاسمة، فيرسل الله جنداً من جنوده، ريحا باردة شديدة، فتفكك حلف الباطل، بعد أن يَئِسَ من اختراق جبهة الصمود الإسلامي.

يقول القرطبي: "كانت هذه الريح معجزةً للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبرَ عندهم بها. ﴿ **وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها**﴾، وقرئ بالياء؛ أي لم يرها المشركون، قال المفسرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأتِ النيران، وأكفأتِ القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إليَّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاءَ النجاءَ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب"[2].

أما الثمرة الثانية للثبات الأسطوري، ويمثله هنا غزوة الأحزاب، فهي الانتقال من الحرب الدفاعية إلى الحرب الهجومية، إن لذلك الثبات أثرٌ مهمٌّ على معسكر الشرك والتوحيد، فأما أثره على معسكر

---

[1] فتح الباري لابن حجر (11/ 434).

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (14/ 144).

المشركين، فَغَيَّر قناعةً كانت عندهم من المسلَّمات، وهي استئصال الدعوة وقادِتها وجنودِها، أما أثره على جيش الموحدين، فإعادة تقييم موازين القوى؛ إذ إنهم باتوا نداً شرساً للخصم العنيد، الذي تهابه الجزيرة العربية وتذعن له، أما اليوم فانكشفت حقيقته، وسقطت هيبته، وتحرير مكة المكرمة، الذي كان في السابق حُلماً، أصبح اليوم قريبَ المنال، وذلك ليس إلا ببركة الثبات، فالثبات يكشف لك قوة الباطل في صورتها الحقيقية، وليست الصورة الدعائية، فلما كان ذلك الثبات الأسطوري، استحقوا البشارة النبوية بعلو كلمة الإسلام، "الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم"[1].

الركن الخامس: الثقة

على الرغم من كون الثقة هي الركن الخامس، إلا أنها على درجة عالية من الأهمية، فالثقة هي التي تظهر الإيمانَ على حقيقته، ذلك أن هذا الركن يظلُّ خاملاً زمن الرخاء، وينشط في البأساء والضراء، فيكشف حظَّ الناس منه، وعندها فقط يظهر الإيمان على حقيقته، فإما أن يكون القلب لم يأخذ حظا وافراً منه، وهؤلاء هم ضعاف الإيمان، وإما أن يكون خاليا منه تماما، وهؤلاء هم المنافقون، وإما أن يمتلئ إيمانا، ثم يفيض على ما حوله، كأرض سقتها السماء ماء، فأخذته، ثم أخرجت للناس من كل الطيبات بأمر ربها، وأولئك هم أهل الإيمان، وهؤلاء لا يترددون، ولا يرتدون على أعقابهم، فإذا كانت هذه وتلك من

---

[1] صحيح البخاري (5/ 110).

غيرهم، اعتذروا إلى الله مما صنع الفريق الأول، وتبرؤوا مما صنع الفريق الثاني.

نموذجه:

في يوم الاثنين من ذي القعدة سنة 6 هـ، خرج رسول الله ﷺ من المدينة متوجهاً بالصحابة إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، وقد كان رأى رؤيا، أنه دخل مكة مع الصحابة محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق الهدي معظِّماً للبيت، وفرح الصحابة بتلك الرؤيا، بعد أن طال عهدهم بمكة المكرمة[1].

وكان مسيره إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل[2]، حتى إذا كانوا بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم[3]، فقال رسول الله ﷺ: "يا وَيحَ قريش؛ لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلَّوا بيني وبين سائر العرب؟!؛ فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة[4].

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (2/ 335).

[2] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 291).

[3] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 312).

[4] السيرة النبوية لابن هشام (4/ 276).

ثم كانت سفارات بين الفريقين، وكان واضحاً قبل عقد الصلح، أن قريشاً مصرة على موقفها، وهو أَلَّا تسمَح للمسلمين بدخول مكة لأداء العمرة، وهو مالم يكن سهلا على النفوس، فقد بُشِّروا بدخول مكة آمنين مطمئنين، ومع ذلك كان موقف الصحابة عظيماً، يدل على ثقة تامة بالله ورسوله ﷺ.

فلما بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قُتل، دعا الصحابة إلى مبايعته على القتال، فبايعه القوم على الموت[1]، وفي رواية على الصبر[2]، وفي رواية لمسلم على عدم الفرار[3]، ولا تعارض في ذلك؛ لأن المبايعة على الموت، تعني الصبر وعدم الفرار[4]. ثم كان الصلح، وكانت بنوده، التي كانت مجحفة في ظاهرها، وتقرر عدم أداء العمرة في هذا العام، إنهم لم يمنعوا من تعظيم البيت فحسب؛ بل وقَّعوا أيضا على بنود قاسية مؤلمة، وحتى نستطيع تصوُّرَ ذلك الموقف، ينبغي أن نتعرف على الضغط العصبي الرهيب، الذي تعَّرض له أهل بيعة الرضوان، والذي كان نتيجة لجملة من الظروف، كما يقول الأستاذ منير الغضبان، وهي خمسة كما يلي:

1- الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ، أنه دخل الكعبة، وأخذ مفتاحها.

---

[1] صحيح البخاري (4/ 50).

[2] المرجع السابق (4/ 50).

[3] صحيح مسلم (6/ 25).

[4] السيرة النبوية للصلابي (2/ 350).

2- ظهور أبي جندل، وهو يَرسُفُ في أغلاله، ثم يُرَدُّ إلى المشركين.

3- رفض سهيل بن عمرو كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" في صدر الصحيفة.

4- كتابة اسم رسول الله ﷺ الشخصي (محمد بن عبد الله)، دون أن يسبق بكلمة "رسول الله".

5- العودة عن مكة هذا العام، وأنه من جاء من أهل مكة مسلماً ردَّه رسول الله ﷺ، ومن جاء من المسلمين إلى مكةَ مشركاً لم يَرُدَّه المشركون.

إنَّ هذه الضغوط جميعاً جعلت المسلمين في حالة نفسية صعبة، خاصة وهم يتحولون من المدِّ الشعوري العالي بالبيعة على الموت، ونصر الله المقترب بدخول مكة، والذي لا يشكون فيه طالما أن رسول الله ﷺ قد بشَّرهم به[1]. كان اختباراً صعباً، كلُّ مشاهده في غير صالح الجماعة المؤمنة، أو هكذا يُخَيَّلُ إليك، فتلك الضغوط مجتمعة أو بعضها، كان يمكن أن تؤديَ إلى فتنةٍ، أو خلخلةٍ في الصف المسلم، يتشكَّلُ على إثرها انشقاقات دينية وفكرية وسياسية، لكنه ظلَّ صفا صلبا ومتماسكا، فهؤلاء الألف وأربعمائة رجل، هم اللبنات الأولى للدعوة، التي عايشت كلَّ محطات التربية، ولذلك كانت واثقةً ثقةً مطلقة بالله، ومطمئنة لنصره.

أما ما كان من عمرَ رضي الله عنه، فليس إلَّا غضبًا لله ورسوله، فشخصية الفاروق أكثر ما يميِّزها الانتفاض على الظلم والكبر، تكملها

---

[1] المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان (ص:352).

شخصية الصديق، وأعظم ما يميِّزها ضبط النفس في وجود النبي المؤيد بالوحي، ولذلك فإني أرى أن الحوار بين عمر وأبي بكر رضي الله عنهما قد حقق التوزان للصف الإسلامي.

وأظنها كلماتٍ كان لابد أن تكون، فالنبيُّ نفسه لا يرفض الحوار والنقاش، فقد رأينا أنه أجاب على تساؤلات الأنصار في بيعة العقبة الثانية، وأخذ بمشورة الصحابة في بدرٍ، وأُحُدٍ، والأحزاب، وغيرِها، لذلك كان لابد لتلك الكلمات أن تنطلق من عمر، ومن أجرأ منه ليقولها؟!، وكان لابد لذلك المعنى العظيم أن يكون من الصديق، فمن أعظم منه إيمانا؟!

"يا عمر الزَم غرزه؛ فإني أشهد أنه رسول الله[1]"، جملة واحدة يسمعها المؤمنون، فما يزدادون إلا ثقة بالله وبرسوله، وعليه، فإن على أهل الإيمان، في وقت الأزمات التي تمرُّ بها الأمة، أن يجددوا ثقة الناس بربهم، فلسنا في غنىً عن ذلك، إذا علمنا أن أهل بيعة العقبة، وهم الراسخون في الإيمان؛ ازدادوا ثقةً بنصر الله وتأييده بكلمة الصديق، ومن بعدها كلمة رسول الله: "أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضَيِّعَني"[2].

حقيقته:

ثقة صافية لا تشوبها شائبة شك، ولا تعكرها أكدار التردد، هي كثقة أُمِّنا هاجر رضي الله عنها يوم قالت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، عندما تركها ووليدَها إسماعيل عليه الصلاة والسلام في

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 319).

[2] المرجع السابق (3/ 319).

صحراءَ قاحلةٍ، لا ماءَ فيها ولا نبات، قالت: "إذن لن يضيعنا"، وهذا هو منهج المؤمن بربه، الواثق بمولاه، المستسلم لخالقه.

جاء في الحديث القدسي الذي يرويه واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ، يقول الله تعالى: **"أنا عند ظن عبدي بي، إن ظنَّ خيراً فله، وإن ظنَّ شراً فله"**[1].

إنه شعورٌ عظيمٌ أن تستشعر أن الله سبحانه وتعالى معك، ولذلك كلما شعرتَ بضيق أو شدة، عدت إلى هذا الحديث، وسألت نفسك. هل يضلُّ من استقام قلبه وجوارحه على الأمر والنهي؟!، وهل يخذل الله من ظن به خيراً... أن يوفقه، أو يرزقه، أو يستره، أو يعطيه، أو ييسر له أمراً ما؟!

حقيقة الثقة، هي أن تثق أن النصر والتمكين حليفك لا محالة، إذا أخذت بالأركان جميعاً، كما تثق أنك حزت الأجر إذا أقمت الصلاة.

الفتح قريب وإن لم تره، عنوانك في ذلك ثقة نبيك بوعد الله: "يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه"[2]، فالله لا يخلف وعده، ولا يخذل دينه، ولا يُسلم أولياءه.

ثمرته:

الثمرة الأعظم للثقة، هي رضوان الله تعالى، ولم يكن ذلك التصريح بالرضوان، إلا لأولئك الكرام؛ بل إن البيعة لا تعرف إلا ببيعة الرضوان، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ**

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب للألباني (3/ 175).

[2] زاد المعاد لابن القيم (3/ 28).

تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:18).

ولأن الثقة هي تمام الأركان الخمسة، ومعه ركن العمل الصالح، فقد بُشِّروا بالفتح بعدها، والفتح في زماننا ليس مستحيلاً، فالسنة لم تتغير، ولم تتبدل، ولذلك فإننا ننعم بالسكينة بحمد الله، ونرى التحرير حاصلاً ببركة الثقة بالله، رغم الظلم الكبير الذي يعيشه الشعب الفلسطيني، وحرب القريب والبعيد، لكننا سنفرح بفتحٍ قريب، كان بعضنا يظنه مستحيلاً أو بعيدَ المنال؛ نتيجة الحال المتردي الذي تعيشه الأمة.

إن هذا القول ليس جرأة على الله، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، بل من باب الثقة بالله سبحانه، فما أجملَ وما أعظم أن نتقرب إليه بهذا الركن المهم، بعد أن نجيد الأركان السالفة.

أما الثمرة الثانية، فهي العزة وقت الشدة، فلئن كذبوا وزعموا أن الله خذله ونصرهم؛ لأنهم أحبُّ إليه منه، فلن يجزع، ولئن مارسوا تضليلاً فلن يخنع، بل سيكيل لهم الصاع اثنين أو يزيد، وما رأيتُ أدلَّ على ذلك ولا أعجبَ، من رَدِّ أبي بكر الصديق رضي الله عنه على عروة الثقفي، لحظاتٍ فقط تحول فيها الصديق من الرحمة والحلم، إلى بركان من الغضب، ليس بركاناً طائشاً، بل بركان غاضب يعرف مساره وغايته، مساره ضدَّ أعداء الله تعالى، وغايته الدفاع عن رسول الله ﷺ ابتغاء مرضاة الله.

كانت مواقف العزة، لما أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي[1]؛ لمفاوضة المسلمين، وصَدِّهم عن البيت بشتى الوسائل، فقال: يا محمد أجمعت أوشاب[2] الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك؛ لتفضها بهم؟!، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وأَيمُ الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا، قال: وأبو بكر الصديق رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصُص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟!، قال: من هذا يا محمد؟، قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يَدٌ كانت لك عندي لكفأتك بها، ولكن هذه بهذه، قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، قال: فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ، ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أَلَّا تصل إليك، قال: فيقول عروة: ويحك ما أفظَّك وأغلظَك!، قال: فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟، قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة[3]، قال:

---

[1] جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة 8هـ، قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، وهو يظن أنهم يطيعونه؛ لأنه كان سيدا مطاعا فيهم، لكنهم رموه بالنبل حتى قتلوه. الرحيق المختوم للمباركفوري (ص:444).

[2] أوشاب: الأخلاط من الناس والرعاع. تاج العروس للزبيدي (ص:1006).

[3] لم يعرفه عمه عروة؛ لأنه كان مقنعا بالحديد. سير أعلام النبلاء (3/ 25).

أي غُدَرُ، وهل غسلتُ سوأتك إلا بالأمس[1]!"[2].

لقد تفجرت ثورة الغضب الصديقية في وجه العدو، عندما مارس سياسة التضليل وتزييف الحقائق، ولولا أن كلمة الصديق ثابتة في صحيح البخاري، وكتب السير؛ لتشككتُ فيها، فكيف تصدر تلك الكلمة من رجلٍ حييٍّ، لا يصدر عنه إلا أدب الحديث، وأحسن الفعال، لكنها في موضعها الذي قيلت فيه كانت قمةَ الأدب، وأعظمَ الفِعال، ومع أن صنيع المغيرة عظيم، غير أني لم أعجب له كما عجبتُ لكلمات الصديق، فهذا الرد لكم إن حاولتم التطاول على مقام النبوة، وهذا ما تفهمونه، إن كذبتم على الإسلام وأهله؛ فكيف يتخلى المؤمنون عن رسول الله؟!

دافع الصديق والمغيرة عن رسول الله ﷺ، ونحن سندافع عنه أيضاً؛ بالدفاع عن مسراه، عن المسجد الأقصى المبارك، فإذا تطاولت ألسنتهم عليه، وزعمت أن هدمه واجب لإقامة الهيكل؛ انبرى لهم أحفاد الصديق، فبددوا كذبهم، وإذا امتدت يدٌ آثمة إلى ترابه ومعالمه الطاهرة، رَدَّتها أو قطعتها أيادٍ متوضئة، تستلهم منهج المغيرة، فطوبى لهؤلاء وهؤلاء.

---

[1] أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثةَ عشرَ رجلاً من بني مالك من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر. السيرة النبوية لابن هشام (4/ 281).

[2] السيرة النبوية لابن كثير (3/ 312).

الفصل الرابع: مراحل النصر

المرحلة الأولى: الصدمة

عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسدٌ بُردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: "ألا تستنصُر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حضرموتَ، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[1].

هذه مرحلة مهمة من مراحل صراع الحق والباطل، فلابد للجماعة المؤمنة أن تكتشف طبيعة المعركة التي تخوضها ضدَّ الباطل، وعليها أن تعرف أن الباطل لن يُسَلِّمَ لها دون تضحيات، فهي تنازعه ملكه، وتسلبه سلطانه، ولهذا فلن تكون المعركة عقلانية ولا حضارية، فغاية القضاء على أصحاب الرسالة، تبرر كل وسيلة.

هذه المرحلة خطيرة ومهمة في الوقت ذاته، فمن أعجب العجب أن تحمل للناس الخير.. ويضمرون لك الشر..، تتمنى لهم السعادة..، ويريدون لك الشقاوة..، تحسن إليهم، ويسيئون إليك..، تحنو عليهم،

---

[1] صحيح البخاري (4/ 201).

ويقسون عليك.. تعطيهم ويمنعونك..، تذكرهم وينسونك..، تدعوهم ويحاربونك.

ما رأيت أعظمَ منه على النفس، ولا أشدَّ منه على القلب، فإذا لم يستطع الداعية، ترجمة تلك التصرفات البشرية، استناداً إلى مختلف الظروف المحيطة بالمجتمع المستقبل لدعوته، فلن يتمكن من وضع ذلك السلوك في سياقه الصحيح، ولن يقدر على التعامل معه وفق ما تقتضيه الحاجة؛ ولأجل هذا فهي مرحلة مهمة، وخطيرة لأن ذلك الصدود، يمكن أن يؤثر بالسلب على الداعية، بأن يقِّرر الانسحاب من تلك المواجهة.

"ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟" هي الطبيعة الإنسانية، التي تميل إلى الراحة، تفضِّلُ السير في طريق معبدة، والصحابة لم يكونوا خارج الفطرة البشرية، ومع ذلك صبرت على شيءٍ من العذاب، حتى بدت الرغبة في إنهاء عاجل لهذا الواقع المؤلم، ودعاء النبي ﷺ، هو العلاج الأفضل، والحلُّ الأسرع، لكنَّ المنهجية الجديدة التي ثبتها رسول الله ﷺ، جاءت لتغير تلك الطبيعة البشرية؛ فترى حينها أن الراحة في الحركة؛ لنشر دعوة السماء، وأن الغنى في التضحية والعطاء، وأن السلامة هي نقاء الفكر من شعوذات الأشقياء.

كان ردُّه ﷺ يحوي إشاراتٍ قاسيةً، لكنها كانت ضرورية؛ لإيقاظ الحالة الشعورية، تهيئةً للنفس المؤمنة أن الطريق عسيرة، والعقباتِ كثيرة، فمن اختارها فليعلم أنه لا إيمان بلا فتن، قال تعالى: ﴿**الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾

(العنكبوت:1– 3)، ولا جنة قبل البأساء والضراء والزلزلة، قال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾** (البقرة:214).

إنَّ هذه الحالة من الصدمة الحضارية التي ينقلها لنا خَبَّابٌ رضي الله عنه هي الصدمة ذاتها التي تعرَّض لها الشعب الفلسطيني، كان شعباً آمناً مطمئناً، فَسِيقت إلى أرضه أَوشَابُ اليهود، يزعمون أن الله أورثهم الأرض المقدسة، فاعتدوا على الحرمات بالقتل والتدمير، فكان ذلك شديدَ الأثر في نفوس الفلسطينيين، فلعله لم يخطر ببال العامة، أن يعتديَ شعبٌ على آخر، فيخرجَه من أرضه وماله، وبدعم العالم الغربي وتأييده، وبمساندةٍ من أنظمةٍ عربية.

صدمةٌ سبقت طرده، وصاحبت تهجيره من أرضه، فقاومها الشعب الفلسطيني سلمياً وعسكرياً، ومع عظمة ذلك التصدي للعدوان الصهيوني، إلا أنه ظلَّ قاصراً عن ردع المشروع الصهيوني، ذلك أن المقاومة الفلسطينية كان ينقصها التربية الإيمانية، أو التربية الجهادية في بعض الأحيان، وحالت الظروف الطبيعية دون ذلك في أحيان أخرى، فعلى سبيل المثال لم يكن للشعب الفلسطيني كيان يحافظ على النصر، الذي تحقق باستعادة قرية القسطل عام 1948، ويتداخل مع هذه العوامل الخذلان العربي والإسلامي الرسمي.

ولابد من التفريق بين ثورات الماضي، والثورات المعاصرة، فمع عظمة الثورات في عشرينات القرن الماضي وفي الثلاثينات والأربعينات منه، إلا أن كل واحدة منها انتهت، دون أن تسلم التي

تليها شيئا من إنتاجها العسكري على الأقل، أما الانتفاضات المعاصرة، فتميزت بالانتقال السلس للتجربة الفدائية، ورغم أن انتفاضة الأقصى عام 2000، قد استعادت القوة العسكرية من الصفر تقريبا، إلا أنها تطوَّرت تطوُّراً مذهلا، ونجحت في مراكمة الخبرة الميدانية، وقوة السلاح، وهذا يعد إنجازاً عظيماً للمقاومة، أما الثورة التي انطلقت من خارج فلسطين في ستينيات القرن الماضي، فعلى أهميتها وبسالتها، غير أن انطلاق ثورة من داخل الأرض المحتلة أنكى للعدو، وأقرب من الجماهير.

إذن هي ضلالة من ضلالات الباطل، الذي لا يقبل أن يبقى الحق إلى جواره؛ لأنه سيفضح سوءته التي يحاول طول الوقت أن يخفيها، فكان إخراج النبي ﷺ وصحابته من مكة المكرمة، وكان ذلك هو نهج الاحتلال الإسرائيلي، فأخرج الشعب الفلسطيني من أرضه، لكنه لن يغير الماء والهواء والتراب، فكل ذلك يشهد بأن الأرض منه براء، تبغضه وتلعنه، وسيأتي يوم وتلفظه.

أُخرج الشعب الفلسطيني، وبقيت مجموعات منه، وهؤلاء هم الذين يعيشون وسط العدو، ظلوا رغما عن العدو، فسعى إلى تذويبهم، فما استطاع، وما العلة أن يهاجر نفرٌ، ويبقى آخرون؛ فقد أُخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أرضه، ورُبِّيَ موسى عليه الصلاة والسلام في بيت عدوه الأول، فكان خيرَ مُطَّلِعٍ على أسرار عدوه، وكذلك أبناء هذا الشعب، فهم أعرف بعدوهم من غيرهم، يعرفون نقاط قوته ومواطن ضعفه، وسيكون لهم دور في رحلة الخلاص.

إنَّ هذه المرحلة قد أخذت فترة من الوقت، فآثار الصدمة تختلف من شخص لآخر، وقد استمر ذلك الحال فترة من الزمن، حتى ذهب أثر الصدمة، وأدرك الناس مبرراتِ هذه الأطراف ودوافعها كافة، اليهود، والعالم الغربي، والأنظمة العربية، ولقد أيقن الشعب أن الواقع الحياتي ليس كما الأحلام والطموحات، التي ترسمها لك مخيلتك، إنه صراع أبدي بين حقٍّ وباطل، ولن تنتهي هذه المعركة، إلا بانتهاء الوجود البشري على هذه الأرض.

وفَهِمَ الناس كما فَهِمَ خبابٌ وصحبه، أن من حمل اللواء، فستعترضه السهام واحداً بعد واحد، يكاد كلٌ منها أن يفتك به، فإذا ظن أنه نجا من آخرها، أتاه آخر، حتى يغدو من اجتاز تلك المحطات، لبنة قوية في بنيانٍ متماسك.

بدأت الصدمة قوية جداً ببداية التعذيب، ثم بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً، حتى انتقلت الجماعة إلى المواجهة الواعية.

إن الرحمة النبوية، المستمدة من رحمة الخالق جلَّ وعلا، لم تقتصر على تهيئة الأمة لتلك الصدمة الحضارية فحسب؛ بل التبيان للأمة أنها معركة معلومة النتائج، معالم طريق واضحة، لن يعلوَ فيها كافر على مؤمن، ولن يدومَ للضلال مقام، فيذكر أن المستقبل لهذا الدين، لكن ذلك مرهون بعمل وتضحيات، هو أمر الله قادم لا ريب فيه، ولا داعي لعجلة لن تغير من واقع الأمر شيئا.

أهداف المرحلة:

هدف واحد عظيم، هو إنقاذ المجتمع من آثار الصدمة، والعمل على ألا تطول فترتها، وذلك من خلال تذكير المؤمنين بسنن الله

تعالى، والتذكير بالنماذج الجهادية في الأمم السابقة، وفي هذه الأمة، والمجتمع الذي نعيش.

المرحلة الثانية: تأسيس كيان

من كان يحسب أن الهجرة إلى المدينة، ستحمل ذلك الخير كلَّه، ليس للجيل الأول من المؤمنين، وإنما للبشرية جميعا، من كان يعلم أنها ستتحول من تجربة مريرة، إلى فكرة ملهمة تقود المستضعفين إلى الخلاص على مدار التاريخ، كانت في ظاهرها شراً، وفي باطنها خيراً، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، قال تعالى: ﴿**فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ (النساء:19).

إنها رحلة الصراع الأبدي، الذي يطارد فيه الباطل همساتِ الحق، فيسعى أهله مكرهين إلى البحث عن موطن يسمح للأصوات المكبوتة أن تعلو، وللأحلام المحرومة أن تزهو، فيخرج جلُّهم كرهاً وبعضهم طوعاً، فكيف لهم أن يبقوا في مكان لا يقيمون فيه دينهم؟!، يذهب المهجَّرون الأُوَلُ إلى المدينة، فيؤسِّسون دولة مسلمة، يقيمون فيها شرائع الإسلام، لكن ذلك ليس كلَّ الحلم، فهذا بعض منه، فالحلم الكبير أن تدين هذه الأرض لله، بما فيه مكة المكرمة، ثم تنفِّذ دولة الإسلام مهمتها الثانية، وهي انطلاق الجيوش، التي ستحارب الظالمين نصرة للمظلومين.

أما نحن فنذهب إلى بقاع شتى، داخل الوطن وخارجه، كلٌّ مكان منها له دور في نصرة القضية، غير أن موقعا منها كان له حظ وافر

من ذلك[1]، فأقام الناس فيه شرائع دينهم، أما ما يميزه عن غيره، فهو أن تألفت فيه الكتائب، التي ستحارب المعتدين انتصارا للمؤمنين، وهذا ما يميزها عن غيرها من أجزاء فلسطين، التي تعمل كلَّها في أدوار متكاملة؛ لتحرير الإنسان والأرض.

إنَّ تشكيل قوة مناصرة للحق، ومدافعة عنه، هي الحكمة الأعظم من الهجرة، فكيف يمكن لهذه القوة أن تتشكل لولا الهجرة؟!، وكيف سيقبل الباطل بتأسيس عصائب الحق بين ظهراني الشرك؟!!.

من الممكن أن تؤسس تلك القوة في ظل وجود الأذرع الخبيثة، كما كان من تأسيس التشكيلات المجاهدة في غزة أثناء وجود الاحتلال الإسرائيلي، لكن ما أعنيه هو أن تلك القوة شكلت بعيدا عن مركز العدو وتجمعاته العسكرية والشعبية، أما الأمر الثاني فهو أن قوة الحق، دخلت طورا جديدا ومهما، بعد دحر العدو من غزة، ففي هذه المرحلة يحظى الشعب الفلسطيني بأعظم قوة مسلحة منذ أن بدأ ثورته.

إن معاني الهجرة غاية في العظمة، فهي هجرة من جزء من الوطن لا تستطيع فيه إقامة شرائع الإسلام، إلى جزءٍ آخرَ تعلن فيه شرائع

---

[1] هذا فضل الله سبحانه وتعالى، يؤتيه من يشاء، فمن فضله على غزة، أن اختصها بهذه المكانة الجليلة، فكانت دار النصرة والإعداد، وكانت أسوتها في ذلك المدينة المنورة، أما أهلها فتشبهوا بالأنصار، الذين آوَوا ونصروا، ولم يكن همهم إلا إعلاءَ كلمة الله، ولما كانت غزة كذلك رفع الله ذكرها، وأعلى شأنها، فلي الشرف أن أنتسب إلى هذه المدينة، وأسأله سبحانه وتعالى، ألا يكون ذكرنا عند الناس حسنا، وعنده سيئا، وأن يحشرنا جميعا مع ساداتنا المهاجرين والأنصار.

الإسلام بحرية مطلقة، هي هجر العجز والكسل، إلى القوة والعمل، وهجر ما نهى الله عنه؛ لتعمير الآخرة والدنيا.

إنَّ الخروج إلى موطنٍ يُؤمِنُ فيه على الكليات الخمس، بما فيها الدين، ليس نهاية المطاف، فقوى الضلال لن تترك أهل الإيمان وشأنَهم، لذلك على الجماعة المؤمنة أن تطلب الباطل قبل أن يطلبها، وتسعى إليه مقاتلة، قبل أن يأتي إليها، فإن لها وطنا مسلوبا، ينتظر أن يقام فيه الدين، كما أقيم في الموطن الجديد، والمستضعفون فيه يتطلعون إلى يوم الخلاص، وليس لهذه المهمة الإنسانية إلا أتباع الشريعة المحمدية، ولذلك فإنهم يساهمون في تحقيق قدر الله من حيثُ لا يشعرون.

حذارِ من التيه:

أمر موسى عليه الصلاة والسلام بني إسرائيل، بأن يستجيبوا لأمر الله تعالى بدخول الأرض المقدسة، لكن ذلك الدخول كان يتطلب منهم الدخول أولا في مرحلة الجهاد، جهادِ النفس، وجهادِ العدو، ومع أن ذلك الجهاد كان نصرة لدين الله، إلا أنه كان أيضاً تحسيناً لمعاشهم، بحيث ينتقلون من حالة الذلة إلى القوة، ومن التشرذم إلى التجمع، ومن الجماعة إلى الدولة، ومن الاستضعاف إلى الاستخلاف، لكنهم اختاروا حياة الدعة، فعوقبوا بالتيه؛ حتى يموت ذلك الجيل، ويأتي جيلٌ جديدٌ تتجافى جنوبهم عن الخور، ويدخلون على عدوهم الباب.

خذل بنو إسرائيل رسولهم، واستكبروا على أمر الله تعالى، فكان جزاؤهم التيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾

(المائدة:26)، لذلك فإن على طالبي الحرية ألا يحيدوا عن المنهج؛ لأن ذلك يعني تيها عن الطريق، وبالتالي تأخرا عن بلوغ الغاية، أما القعود عن الجهاد فنقمته الحرمان من شرف الفتح، فمن قعد عن العمل لتحرير الأرض المقدسة، كان مَثَلُهُ مَثَلَ بني إسرائيل، وكانت عقوبته مِثلَهم تماماً، التيه في شقاء الدنيا، حتى لو رُزق المن والسلوى.

أهداف المرحلة:

الحفاظ على الدعوة وأنصارها هو الهدف الوحيد في هذه المرحلة، وهذا يتأتَّى من خلال إيجاد مكانٍ يأمن فيه المؤمنون على إقامة الشعائر، والبرامج التربوية والجهادية، دون التعرض للأذى والتضييق والملاحقة.

المرحلة الثالثة: المناوشة

كان حريا بالجماعة المؤمنة، التي أسست كيانها الجديد، بعيداً عن غطرسة العدو وسطوته، فحقَّقتِ الأمن الفردي والجماعي، ونظَّمت شؤون المجتمع الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، وأعلنت البرنامج السياسي، الذي ينظم العلاقات الداخلية والخارجية، كان لزاماً عليها، أن تنتقل إلى مرحلة جديدة في إدارة الصراع، مع العدو الذي أخرجها من ديارها وأموالها.

كانت السياسة الخارجية هي استيعابَ الأطراف كافة، وعدم فتح عداوات مع أحد، فليس من الحكمة زيادةُ الخصوم، وفتحُ عديد الجبهات في آنٍ واحد، وهو ما سيؤدي إلى تشتيت الجهود، وتفتيت

القوة، والانصراف عن الهدف الرئيس، وهو العودة إلى الوطن، وتطهيره من الشرك، تحقيقاً للخلافة في الأرض.

ومن هنا بدأت السياسة الخارجية الجديدة مع قريش، وهي إرسال دوريات إسلامية، تستطلع بالقوة، وتشتبك مع المشركين إذا لزم الأمر، والهدف من ذلك أَلَّا ينسى المهَّجرون أن لهم وطناً بانتظارهم، وأَلَّا يظن العدوُّ أنه في مأمنٍ، من انتقام، الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم.

السرية الأولى:

ذكرتُ من قبل أن النبي ﷺ قد جهَّز منذ رمضان في السنة الأولى للهجرة، إلى رمضان من السنة الثانية ثمانيَ سرايا، وسأكتفي هنا بذكر الثلاثة الأولى؛ لأجل الفترة القياسية التي تمت فيها كما سنرى.

كانت السرية الأولى هي سريةَ حمزةَ بن عبد المطلب، إلى سيف البحر[1]، فبعد أن علم رسول الله ﷺ أن هناك قافلةً قرشيةً محملةً بالأموال والبضائع، في طريق عودتها إلى مكة من الشام، يقودها أبو جهل بن هشام، ويحرسها حوالي ثلاثمائة راكب، جهَّز لها دورية قتالية، قوتها ثلاثون مجاهدًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، يقودها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وتحركت تلك القوة في شهر رمضانَ من السنة الهجرية الأولى، وحمل اللواء أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي رضي الله عنه، وعلى ساحل البحر الأحمر، التقت بالقافلة القرشية ناحية العِيص، في منطقة نفوذ قبيلة جُهينةَ وقبل أن يشتبك الطرفان، تدخَّلَ رجلٌ من كبار جهينةَ، فأجرى جولاتٍ

---

[1] السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة للعمري (ص:82).

من المفاوضات المباشرة مع كلِّ طرف على حدة، حتى نجح في مساعيه السلمية، فحجز بينهم مخشى بن عمرو الجهني، وكان مخشي ورهطه حلفاء للفريقين، فلم يعصوه، فرجع الفريقان، ولم يكن بينهم قتال[1].

كانت نتائج هذه السرية على المعسكر الوثني سيئةً للغاية، حيثُ هزَّت كيان قريش، وبَثَّتِ الرعب في نفوس رجالها، وفتحت أعينهم على الخطر المحدق بهم، الذي يهدِّد طريق تجارتهم، أما المسلمون فكانت نتائجها عليهم إيجابيةَ؛ حيثُ تصاعدت الروح الحماسية بينهم، وأعطتهم ثقة عالية بالنفس، وجرأةً كبيرةً على عدوهم، فقد استطاعوا – ولأول مرة– الوقوفَ في وجه قريش[2].

السرية الثانية، والسهم الأول:

كانت سرية عبيدة بن الحارث هي السريةَ الثانيةَ من حيثُ الترتيب، والأولى التي يقع فيها مواجهة عسكرية، كان قوام السرية ستين مهاجراً، ولم يكن فيها أحدٌ من الأنصار، وكان حامل اللواء مسطحَ بنَ أُثاثةَ، ولما وصلت قوات التدخل الإسلامي إلى (رابغ)، التقت بقافلة المشركين التي خرجت لاعتراضها، فبدأ أول قتال في تاريخ الدعوة الإسلامية، واتخذ القتال طابع المناوشة بالسهام فقط، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أولَ من رمى بسهمٍ في سبيل الله، في تلك المعركة التي لم تستمرَّ طويلاً؛ إذ قرر الفريقان الانسحاب، وكان بطل هذا الانسحاب الناجح سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه، الذي شَتَّتَ

---

[1] المرجع السابق (ص:84–86).

[2] المرجع السابق (ص:86).

تركيز العدو، وأحبط استعداده لشنِّ أيِّ هجومٍ مضادٍّ، عبر وابل من السهام، والتي شَكَّلت ساتراً دفاعياً، ومهد ذلك لانسحاب سليم منظم للمسلمين، ومتوتر مرعوب للمشركين، وقد فَرَّ عتبة بن غزوان، والمقداد بن الأسود يومئذٍ إلى المسلمين، وكانا في حبس قريش[1].

هذه السرية التي يشارك فيها ستون أو ثمانون مهاجرا[2]، في العام الأول من الهجرة، كما جاء في صحيح البخاري[3]، وبالتحديد على رأس ثمانية أشهر، في شهر شوال، كما ذكر ابن كثير[4]، تدل على مدى الحرص النبوي، على تربية الصحابة على التعلق بالوطن، وتهيئة النفوس لملاقاة العدو في مناوشاتٍ خاطفةٍ؛ ليكون من السهل ملاقاته بعد ذلك في معاركَ أشدَّ.

السرية الثالثة:

وفي ذي القعدة من العام نفسه عقد رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص لواءً أبيضَ يحمله المقداد بن الأسود[5]، فخرج في عشرين رجلاً يعترضون عِيراً لقريشٍ، وعهد إليه أَلَّا يجاوز (الخَرَّار)[6]،

---

[1] المرجع السابق (ص:90-91).

[2] السيرة النبوية لابن هشام (3/ 136).

[3] صحيح البخاري (5/ 22).

[4] السيرة النبوية لابن كثير (2/ 338).

[5] المرجع السابق (2/ 339).

[6] الخرار: واد أو ماء بالمدينة. (المرجع السابق: 2/ 255).

فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمسٍ، فوجدوا العير قد سبقتهم بيوم[1].

أهداف المرحلة:

ثلاثُ سرايا في ثلاثة شهور متوالية، من العام الهجري الأول، كانت هذه هي الوسيلةَ النبويةَ؛ لتحقيق ثلاثة أهداف، وهي كالتالي:

- **الهدف الأول:** كانت الشهور الأولى التي قضاها المهاجرون في المدينة المنورة، صعبةً نفسياً، واجتماعياً، وصحياً، واقتصادياً، فكانت السياسة النبوية، في إرسال السرايا نحو مكة، خطوةً حكيمةً نجحت في رفع معنويات المهاجرين، وتطمين الرأي العام بأن قضية العودة موضع اهتمام للإمام وأولوية نبوية.
- **الهدف الثاني:** أراد النبي ﷺ لقريش أن تفهم من هذه السرايا أن الحرب بين الكفر والإيمان لم تَنتَهِ بإخراج المؤمنين من مكةَ المكرمة، وأن منهجية الصبر على الأذى في مكةَ قد تغيرت إلى سياسة مطاردة لقريش؛ حتى تُستردَّ الحقوق.
- **أما الهدف الثالث فهو التطمين والتحذير:** تطمين القبائل العربية المجاورة أن شعب المدينة ليس عصابةً، وأن المهاجرين ليسوا قُطَّاعَ طرق، فهذه السرايا لا تستهدف إلا قوافلَ قريش، وليس لها أيُّ نزاعات أو خلافات مع أيّ قبيلة أخرى، أما التحذير فهو أيضاً للقبائل، التي يمكن أن تطمع في المدينة المنورة، فتظنَّ فيها الضعف، وهو ما يحبط أيَّ محاولة للإغارة عليها.

---

[1] الرحيق المختوم (ص:153).

ولقد كانت انتفاضة الحجارة، وانتفاضة الأقصى، ضمنَ مرحلة المناوشة، وكذلك كان العمل الفدائي، في فترة الستينات والسبعينات، والفرق أن العمل الفدائي المسلح كان مناوشةً فرديةً، أبطالها مجموعة من المقاومين، أما الانتفاضتان فهما مناوشة جماعية، أبطالها المجتمع كلُّه، وقد مثَّلت صحوةُ المجتمع الدينية والوطنية، تحدياً كبيراً للعدو، فكل منهما لم يعد قادراً على كسب هذه الجولة، في واحدة من مراحل الصراع المهمة، التي تميزت بوعيٍ راقٍ، وكسرت هيبة الجيش الأقوى في المنطقة، أمام فتية آمنوا بربهم، فزادهم الله هدى، هدى بكيفية المواجهة، وهدى بالشخصية اليهودية الضعيفة، هداهم الله لمعرفة نقطة ضعف عدوهم، وهي ذاتها نقطة قوتنا؛ إنها الحياة، فهم أحرص الناس على حياةٍ في الدنيا، ونحن أحرص الناس على الحياة في الآخرة، وطريقنا إليها بأرواحٍ نقدمها من أجل دين الله.

المرحلة الرابعة: المقارعة

لم يكن الهدف أبداً من المرحلة السابقة هو القتالَ والالتحامَ المباشرَ مع العدو، فقد يؤدي إلى القضاء على الدعوة قضاءً تاماً، وفي أحسن الأحوال سيكبدها خسائرَ فادحةً، وهنا سيكون على الدعوة أن تعود إلى المربع الأول؛ حيثُ تعيد بناء القوة التربوية والجهادية، وبناء عليه رأينا أن عدد السرية محدودٌ، وقدَّر الله ألا يكون قتال في الأُولى والثالثة، إلا ما كان في الثانية من رمي السهام، وكان فيه رفع لمعنويات المؤمنين، وتخويف للمشركين، وتشريف خاصٌّ لسعد رضي الله عنه.

أَمَا وقد مرت مرحلة المناوشة وفق المخطط النبوي، فكان ذلك نجاحا للداعية الأول محمد ﷺ، ولجنود الدعوة المنضبطين؛ فإن هذه المرحلة ستنتقل بهم نقلة نوعية وخطيرة، فسيبدأ القتال المباشر مع العدو، وذلك في غزوتي بدر وأُحُد.

بعد عامٍ واحدٍ من الهجرة، تَأَهَّلت فيه الجماعة المؤمنة تأهيلاً عسكرياً؛ نشهد تطور قدراتها القتالية في فترة قياسية، فتنتقل من تشكيلات تنفذ مهماتٍ خاصةً وخاطفةً، إلى جيش يدخل في مواجهة مباشرة، فكانت المعركة الأولى في بدرٍ من العام الثاني للهجرة، وأُحُدٍ في العام الثالث، ينتصر الجيش الإسلامي في الأولى، وينتصر جيش الطاغوت في الجولة الثانية من المعركة الثانية.

والعجيب في هذه المرحلة هو مقارعةُ الباطل بجرأةٍ عالية، رغم عدم تكافؤ القوى، وتحقيقُ انتصارٍ في أول معركة بين القوتين، ومن رحمته سبحانه أن تكون الهزيمة في المعركة الثانية، وربما لو كانت في الأولى؛ لكان شأنٌ آخرُ، فربما كان ذلك مقدمةً للقضاء على الجماعة المؤمنة، وذهاب رِيحِها، وربما أغرى ذلك قريشاً بالتوجه نحو المدينة.

أهداف المرحلة:

لم يكن هدف هذه المرحلة هو القضاء على قريش، فالتحرير والعودة والتمكين في الأرض أمورٌ عظيمةٌ، لا تأتي بجولة أو اثنتين، وإنما يحتاج ذلك إلى عديد الجولات، لكن هدف هذه المرحلة، هو إسقاط خرافة الجيش الذي لا يقهر، وقد كان.

نجحت المعركة الأولى في تحطيم تلك الخرافة، وَمَّرغت أنوفهم في التراب، فهزموا شَرَّ هزيمة أمام جيش ناشئ، فعلها شباب ذوو خبرة

محدودة في فنون القتال، يهزمون جيشاً ذا تاريخ، وفيه نخبة مدربة تدريباً عالياً، هزم الباطل في بدر، وبدل أن يعودوا بقادة الدعوة في السلاسل كما كانوا يحلمون، عاد بعضهم تاركاً خلفه أئمة الضلال بين قتيلٍ وأسير.

أما غزوة أُحُدٍ، وما كان فيها من مقتلة للجماعة المؤمنة، فكانت نصراً عسكرياً محدوداً لقريش، وذلك أنها لم تَقضِ على الدعوة الإسلامية، ولم تفكِكِ الجيش الإسلامي، وجيشها لم يدخل المدينة المنورة.

وهو كذلك بالنسبة لأهل الإيمان في فلسطين، فالحرب الأُولى والثانية، لم تنزع الإيمان من الصدور، والمجاهدون لم يرفعوا الراية البيضاء، وفشل جيش المعتدين في اقتحام غزة.

المرحلة الخامسة: الندية

كانت هذه مرحلة فارقة في تاريخ الصراع بين دولة التوحيد النبوية ودولة الشرك الجاهلية، وأهميتها أنها كانت تملك من الحشد والقوة والتصميم، ما يمكنها من استئصال الدولة الجديدة، كان حشدهم عشرةَ آلاف مقاتل، معهم الأشداء من الرجال، وأحدث السلاح، أما عزمهم على القضاء على دولة الإسلام فأخذوا عليه العهود والمواثيق، فلما بلغوا المدينة، كان الله لهم بالمرصاد، فعادوا خائبين مدحورين، وحفظ الله أنصاره.

وإذا كانت هذه الهجمة المنظمة والشرسة لم تنجح في إنهاء المشروع الإسلامي، فإنها لن تنجح في المستقبل في تحقيق هذا

الهدف، على الأقل من الجانب الإداري، فضلاً عن الجانب الأخلاقي، ولذلك فإن هذه الحملة كانت خيراً محضاً على الدعوة الإسلامية، وذلك على عكس ما أراده أعداؤها، فالجيش الإسلامي بعد الأحزاب، ليس هو ذاته قبلها.

فمن اليوم فصاعداً لن تجرؤَ قريش على السير إلى المدينة المنورة، بل تكون الأخيرة هي مصدرَ الفعل، فيسير إليهم جيش التوحيد يزلزل أفئدتهم، ويقتلع باطلهم، والجديد في سيره بعد الأحزاب إليهم، عن سيره إليهم قبلها، سيما في السرايا التي سبقت غزوة بدر، أن السير قبل الأحزاب كان مسيرَ من يسعى للحفاظ على كيانه الفكري، والسياسي، والاجتماعي، أما السير بعدها فهو مسير من يسعى لاقتلاع كيان الباطل الفكري، والسياسي، والاجتماعي.

إن فرض معادلة جديدة في المعركة مع الخصم، ليس أمراً هيناً، فهذا يأتي نتاج محطات عديدة، يحاول فيها الباطل فرضَ معادلته بمنطق القوة، وبالعقلية التي يفهمها، وبالسياسة ذاتها، تدخل معه الجماعة المؤمنة في مرحلة خطيرة، فقوتها لا تباري قوته، لكن ما يرجح كفتها هو قوة الإيمان، ثم قوة الحق، الذي تقاتل من أجله.

وهذا ما كان من رسول الله ﷺ حين قال بعد أن أجلى الأحزاب عن المدينة: "**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**"[1].

هي إذن معالم مرحلة، تكون فيها الكلمة العليا لأهل الحق، وإن كان الباطل يحتفظ بتفوقه العسكري، لكن قوة الحق قد بلغت من العدد

---

[1] صحيح البخاري (5/ 110).

والعدة والجرأة ما يمكنها من اختيار زمان المعركة ومكانها، وفرض مجرياتها، وعندها تميل الكفة لصالحها، بعد مشيئة الله وقدرته.

أهداف المرحلة:

تغيَّرت موازين القوى، وزادت قدرة المسلمين على الهجوم أكثر من قبل؛ فقد سعى رسول الله ﷺ لبسط سيادة الدولة على ما تبقى من قوى حول المدينة؛ لأن ذلك له صلة بالإعداد لغزو قريش في مرحلة لاحقة، ففي العام السادس شارك في غزوتين، وأرسل أربعَ عشرةَ سريةً، وهذه الأعمال والتحركات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار، وتقليم أظفارها؛ من خلال اقتطاع كل ما يمدها بالقوة من حلفائها[1].

وهذا يمكن أن نطلق عليه وصف (تغيير قواعد الاشتباك) مع قريش والقوى الحليفة لها، ولهذا فإن الحركة الإسلامية قد غيَّرت قواعد الاشتباك مع العدو الإسرائيلي، فقد لاحظنا أن الاحتلال الإسرائيلي حاول فرض قاعدة اشتباك جديدة، تتمثل في ضرب العديد من الأهداف، مقابل كلِّ صاروخ يطلق من قطاع غزة، ففرض المجاهدون خلال حرب 2014 وبعدها قاعدةً جديدة، وهي صاروخ بصاروخ، وهذه سياسة جديدة فرضتها القوة، ومع فارق القوة العسكرية بين الطرفين؛ لكنَّ العدوَّ أكثر من يعرف قوة أصحاب العقيدة الصحيحة وصدقهم في إيمانهم.

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (2/ 311).

المرحلة السادسة: كسب أرض جديدة

كان بطل هذه المرحلة هو أبا بصير، ومن لحق به من المستضعفين بمكة المكرمة، أمثالَ أبي جندل بن سهيل بن عمرو، وغيرهَ من المؤمنين، الذين فَرَّوا إلى الله بدينهم، وقَرَّروا نصرة الإسلام بما يستطيعون، فشكلوا قوة ضاربة للحق، تحارب الباطل وأهله، وترفع راية التوحيد في أرض جديدة رغم أنف قريش، أرضٍ يعلو فيها سلطان الإسلام، ويذلُّ على حدودها من حادَّ الله ورسوله.

كانت أول قاعدة عسكرية خارج حدود المدينة، تنفذ سياسة المدينة بالكامل، غير أنها تعمل دون ارتباط تنظيمي بها، فلها الحرية الكاملة في العمل وفق ظروف الميدان، ولذلك تمَّ تسليحها ذاتياً، دون أن تكلف المدينة درهماً واحداً، وقد تمثَّل دور القاعدة العسكرية الإسلامية في ثلاث مهام، وهي: رصد تحركات العدو، وتأمين حدود الدولة المسلمة، والإغارة على قوافل قريش، فاستطاعت بذلك تأمين نفقاتها، وسلب حالة الأمن من قريش.

كانت هذه المرحلة إيذاناً صريحاً بزوال الباطل، فهذه قريش بجبروتها، لا تستطيع حماية قوافلها، فيقع شبابها وقادتها بين قتيل وجريح، وتصادر أموالها، في حرب عصابات، تنفذها قوة الردع الإسلامية، فأرسلت قريش لرسول الله ﷺ، تناشده بالله والرحم لَمَا أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، وتَخَلَّوا في ذلك

عن أقسى شروطهم، التي صَبَّوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلت قريش من حيثُ طلبتِ العزّ[1].

إنَّ حرب العصابات هذه لم تغيَّر من أخلاق أصحابها، فلما مرَّ بهم أبو العاص بن الربيع صِهرُ رسول الله ﷺ، قادمًا من الشام في نفرٍ من قريش معهم تجارة لهم، وسيطروا على القافلة، وأسروا رجالها لم يقتلوا منهم أحدًا؛ إكرامًا لِصِهرِ أبي العاص من رسول الله ﷺ، وأطلقوا سراح أبي العاص، فقدم المدينة على امرأته زينب رضي الله عنها، فكلَّمها أبو العاص في أصحابه الذين أُسِروا، فأجارته زينب، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك خطب الناس، حيثُ وضَّح لهم مكانة أبي العاص منه، وذكر لهم ما أصابه وأصحابه، وأن زوجه زينب قد أجارته، "فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه"، فقال الناس: نعم، فلما بلغ أبا جندل وأصحابه قول رسول الله ﷺ، في أبي العاص وأصحابه؛ ردَّ إليهم كلَّ شيءٍ أخذ منهم حتى العقال؛ امتثالا لرغبة رسول الله[2].

أهداف المرحلة:

لم يكن المغنم هو الغايةَ التي تسعى إليها هذه الثلة المؤمنة، وإنما رفض الفتنة في الدين، فكان هدفها هو إسنادَ الدولة بأعمال تضعف اقتصاد مكة، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصلح[3].

---

[1] السيرة النبوية للصلابي (2/ 370).

[2] السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة للعمري (ص:111).

[3] المرجع السابق (2/ 370).

وقد تحقق هذا الهدف من خلال أرض جديدة كسبتها الدعوة، واتخذت منها قاعدة لمباغتة قوافل قريش، ويمكن أن يتحقق ذلك للحركة الإسلامية في حربها مع عدوَّها؛ بأن تكسب أرضا جديدة، أو أن توفق لتفعيل الجهاد من أرض يوجد فيها أبناء الدعوة؛ لإضعاف قوة العدو، وزعزعة أمنه.

المرحلة السابعة: النصر المبين

في العام الثامن للهجرة تَمَّ فتح مكة، فعاد المهجَّرون إلى ديارهم، وظهر الإسلام في بلد رزح دهراً تحت أغلال الشرك، قال تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ (الفتح:28).

كان ظنُّ المشركين والمنافقين، بل ما كانوا يحسبونه يقيناً، أن المدينة ستخضع عاجلاً أم آجلاً للاحتلال، ويتمُّ التخلص من جيشها وقيادتها، وإذا بها تَقدُمُ عليهم بما لا يطيقونه، ولا يتوقعونه، فيهزمون وتنتصر مكة، وتسقط أصنامهم، ويعلو ذكر الله فوق بيته، ويُعَظَّمُ البلد الحرام، مع البيت الحرام.

ارتفعت كلمة التوحيد من فوق الكعبة المشرفة، وطُهِّرَ البيت العتيق من رجس الأوثان، وطُرحت قوانين الجاهلية، وكذلك يكون عندما تعود بيت المقدس إلى حكم الإسلام، فيعلو الأذان، وتطهر المدينة من آثارهم، وتطرح قوانين الظلم، فلا يحكم إلا بما شرع الله.

كان نصراً مبيناً؛ لأنه ظهر للمؤمن والكافر، والمجاهد والقاعد، والواثق والمتردد، ولم يكن هذا النصر المبين ليكون؛ لو لم تكن الجماعة المؤمنة تعيش انتصاراتٍ متتابعةً، في كل محنةٍ تمرُّ بها، فالفتح غالٍ عزيزٌ، لن يظفر به إلا مؤمن عزيز، عزيز بإيمانه، وعزيز بسلاحه.

وكما كان ذلك النصر للنبي في حياته، سيكون لمنهج النبي بعد مماته، ومن ظنَّ غير ذلك؛ فليحاول أن يمنع ذلك النصر، أو فَليَمُت غيظاً، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى:﴿**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾ (الحج:15).

ورد في تفسير هذه الآية معنيان، **الأول:** من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء**﴾، أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء، ﴿**ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾؛ أي ثم ليقطع النصر إن تهيأ له، ﴿**فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ**﴾ وحيلته ﴿**مَا يَغِيظُ**﴾ من نصر النبيّ ﷺ. **والثاني:** من كان يظن أن الله لن ينصر محمداً ﷺ، حتى يظهره على الدين كله؛ فليمت غيظاً، ثم فسره بقوله: ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء**﴾، أي فليشدد حبلاً في سقف بيته ﴿**ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾، أي ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً[1].

---

[1] فتح القدير للشوكاني (5/ 100).

لقد جاء الحديث عن رحلة الإسراء، وانتهاء وجود بني إسرائيل من الأرض المقدسة، في سورة واحدة، تتحدث الآية الأولى عن الإسراء، والسابعة عن هلاك بني إسرائيل، وزوال ظلمهم، وهذا يعني أنه كما كانت رحلة الإسراء أمراً عجيباً وغيرَ متوقَّعٍ؛ فإن تحرير فلسطين سيكون عجيباً مدهشا حتى للمؤمنين، من حيثُ الظروف والأسباب، التي يسخرها الله لذلك اليوم المشهود.

أهداف المرحلة:

إن غاية هذه المرحلة هي الانتشار نحو العالمية، ففتح مكة ليس نهايةَ المطاف، وإنما التمهيد ليعمَّ السلام بالإسلام أقطار الدنيا، إنه السلام القائم على حفظ الحقوق للناس جميعاً، على اختلاف الدين، والعرق، واللغة، أما ما يزعمه الغرب سلاماً، فهو استسلام يفرضه القوي على الضعيف.

وعليه؛ فإن تحرير فلسطين، سيكون تحولاً عظيماً في التاريخ، ينطلق بعدها المؤمنون لينقذوا البشرية من الظلم العظيم، الذي فرضته القوى العظمى، فتحوَّلت به الأمم والشعوب، إلى خدمٍ تلبي من حيثُ تعلم، أو لا تعلم، مصالحَ امبراطوريات، قد أُسِّست وتعاظمت بأموال الشعوب المغلوب على أمرها وعذاباتها، ويوم يعلو الحقُّ في القدس؛ فإن الطواغيت التي أَلَّهت نفسها من دون الله، ستبوءُ بخزي الدنيا والآخرة، ولن تجد لها من دون الله ولياً ولا نصيراً.

وما إقامة شريعة الله، بعد تحقُّقِ التمكين، إلا خطوة على طريق تلك السيادة، ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (الحج:41).

الخاتمة

الإخوة والأخوات.. المؤمنون **بالنصر المبين** للأمة الإسلامية، شكراً لكم على كرم الإنصات بقلوبكم وعقولكم لهذا العرض...

ويسعدني أن أبلغكم أنه بالإحاطة بمفهوم النصر، وتجسيد أنواعه، وتحقيق أركانه، والصبر على مراحله، يوشك موكبكم أن يبلغ محطته الأخيرة...

لكنني أذكركم أنه من أجل وصولٍ آمنٍ إلى محطة **النصر المبين**، لابدَّ من تمسُّكٍ فريدٍ بالقرآن والبندقية...

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:214).

تم بحمد الله

أحد منتسبي موكب النصر المبين

د. إبراهيم صقر الزعيم

E-KUTUB
Publisher of publishers
Amazon & Google Books Partner
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office: In der Gass 10,
55758 Niederwörresbach,
Rhineland-Palatinate
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132

Outright victory

BY:

Dr. Ibrahim Saqr Al Zaeem

ليس الهدف من هذا الكتاب تحديدَ موعد لتحرير فلسطين، فقد اجتهد بعض العلماء، في توقع عام التحرير، إنما الهدف منه، هو تجديد الأمل بعلو هذه الأمة، من خلال تقديم المفهوم الدقيق للنصر، والتفريق بين النصر. والتحرير، فإذا حقق المسلم أركان النصر، كان منتصراً، وإن اعتقُل، أو استُشهد، أو أُخرج من أرضه، وبدأت بذلك أولى خطواته نحو التحرير، الذي يُعد نتيجة لمسيرة طويلة مع هذه الأركان.

إن هذا العمل اجتهاد من أحد أبناء هذه الأمة، مؤمن بالنصر المبين لشعبه وأمته، يعيش تواقاً لتحرير بيت المقدس والصلاة فيه، وفي كل قرية ومدينة فلسطينية.

المؤلف

آلاف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان

9 781780 584881